ثلاث شخصيات
بين الثقافة والسياسة

د. السيد أمين شلبى



* ثلاث شخصيات بين الثقافة والسياسة

*د. السيد أمين شلبى

* التدقيق اللغوى: محمد أحمد عبد المطلب

* تصميم الغلاف : أحمد الجناينى

* لوحة الغلاف:

للفنان اللبنانى وجيه نحله

*الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٦

* رقم الإيداع : ٢٣٧٣٨ /٢٠٠٥

* المراسلات باسم مدير التحرير

على العنوان التالى:

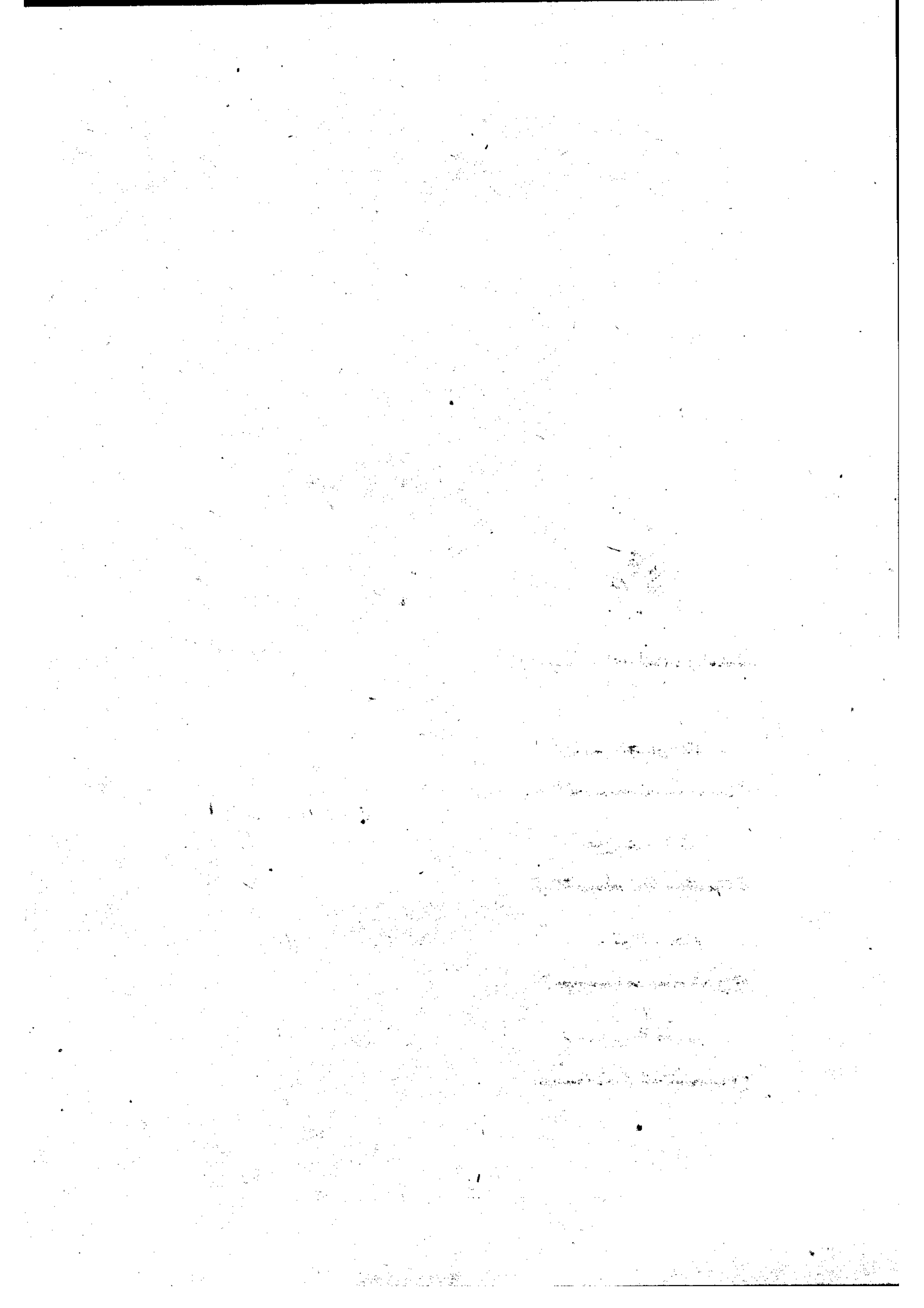
١٦أ ش أمين سامى - قصر العينى القاهرة -

رقم بريدى : ١١٥٦١

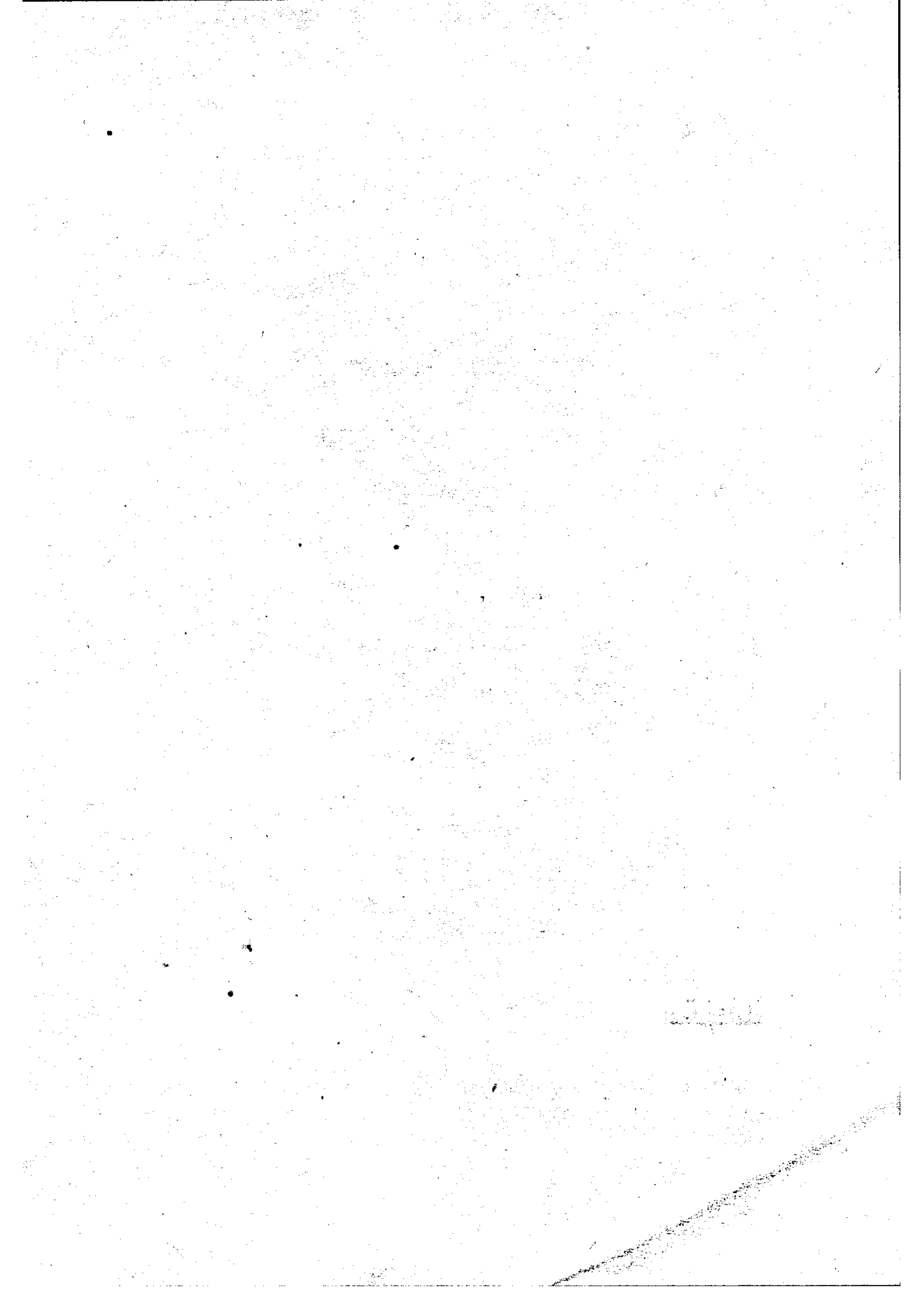
شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : ٣٩٠٤٠٩٦





مقدمة



يضم هذا الكتاب نظرات فى حياة وفكر ثلاثة من الشخصيات الفكرية والثقافية العالمية وأدوراهم البارزة فى الثقافة والسياسة. ولعل أهم ما يميز ويجمع بين هذه الشخصيات أنهم بالإضافة إلى أساسهم الفكرى والثقافى فقد كانوا أيضا رجال دولة وكان لهم أدوراهم السياسية فى حياة أممهم والعالم. هؤلاء الثلاثة هم : الكاتب والمفكر الفرنسى آندريه مالرو والذى جمعته صداقة فكرية عميقة مع الرئيس الفرنسى شارل ديجول ولذلك اختاره وزيرا للثقافة فى حكوماته، والثانى هو المفكر والكاتب المسرحى فاتسلاف هافيل الذى كان فى مقدمة الحركة الثقافية والسياسية التى عرفت أولا بربيع براج عام ١٩٦٨ ثم تطورت إلى ما عرف بالثورة المخملية عام ١٩٨٩ جاءت بهافيل رئيسا لجمهورية تشيكوسلوفاكيا حتى اعتزاله عام ٢٠٠٠، وهى الفترة التى جسدت حيرة المفكر وهو يمارس السياسة ويدير الحكم فى بلاده ومن هنا كانت تأملاته حول هذه السنوات وحول نظرته للحكم ومسئولياته وأعبائه من

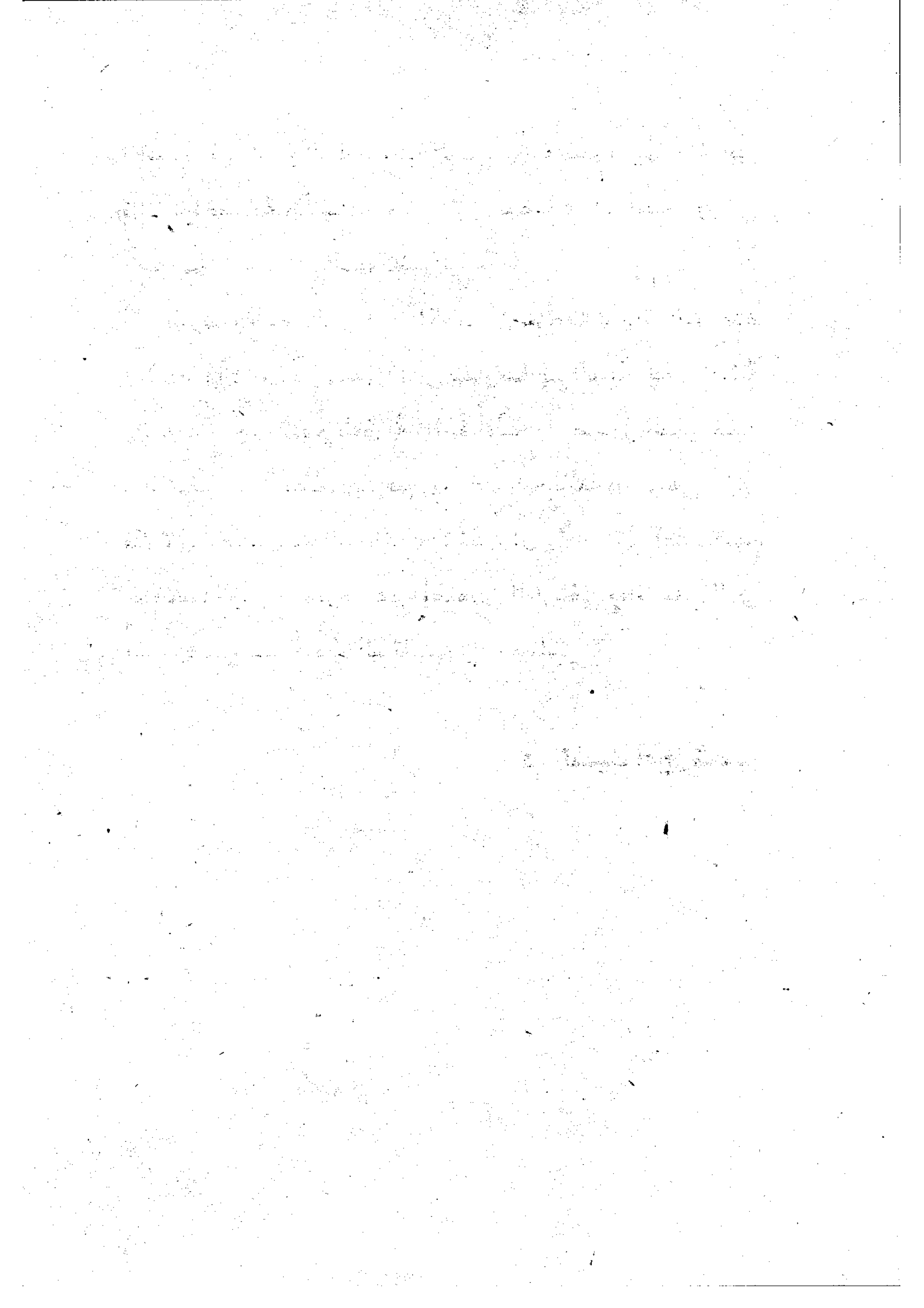
وجهة نظر الكاتب والمثقف وهو ما جعل مؤرخى حياته يصفونه بالرئيس الحائر بين الفكر والسياسة.

أما الشخصية الثالثة فهى شخصية هنرى كيسنجر الذى انتقل فى نهاية الستينيات من الوسط الأكاديمى كمفكر استراتيجى إلى دوائر الحكم والسلطة حين اختاره الرئيس الامريكى ريتشارد نيكسون ليكون مستشاره للأمن القومى ثم وزيرا للخارجية، ومن خلال هذه السنوات وحتى خروجه من الحكم عام ١٩٧٧، كان كيسنجر هو المنظر والمنفذ للسياسة الخارجية الأمريكية والتحولات التى حدثت فى العلاقة مع الصين والاتحاد السوفيتى وحيث كان كيسنجر هو مهندس ما عرف بسياسة الوفاق، فضلا عن أدواره فى مناطق استراتيجية مثل الحرب الفيتامنية والدور البارز الذى لعبه فى دبلوماسية الشرق الأوسط من خلال أعقاب حرب أكتوبر عام ١٩٧٣. ورغم خروج كيسنجر من السلطة فقد استمر نفوذه وتأثيره على السياسة الخارجية الأمريكية والدولية من خلال مؤلفاته وكتاباته وأسفاره، فقد عكف كيسنجر على كتابة مذكراته التى خرجت فى ثلاث أجزاء وبلغت آلاف الصفحات، وكتبه حول قضايا السياسة الخارجية وخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة، فضلا عن عمله

الضخم عن تاريخ الدبلوماسية الحديثة والمعاصر، وبهذه المعانى ظلت شخصية كيسنجر حتى الآن موضوعا لدراسة مؤرخى السياسة الخارجية والدبلوماسية.

وسوف يلاحظ قارئ هذا الكتاب أن عرضه لحياة وفكر هذه الشخصيات لم يكن منصباً على ممارساتهم السياسية والعملية وإنما على جوانبهم الفكرية والثقافية والمصادر التاريخية والفلسفية التى شكلت فكرهم وصنعت شخصياتهم، وعلى إبراز فكرة أن أهميتهم الثقافية لا تقل، بل تزيد، على أهميتهم السياسية وأن ما ميزهم هو المضمون التاريخى والفلسفى الذى أضفوه على ممارستهم السياسية والدبلوماسية.

د. السيد أمين شلبى



آندريه مالرو
وحدة الفكر والعمل

عندما احتفلت فرنسا ومعها الأوساط الثقافية فى العالم - بمرور عشرين عاما على رحيل المفكر الفرنسى آندريه مالرو (١٩٠١ - ١٩٧٦) توجت فرنسا هذا الاحتفال بنقله إلى مقابر العظماء تأكيدا لمكانته بين كبار ساستها ومفكريها. والواقع أن مالرو لم يكتسب هذه المكانة فى بلاده والعالم من أعماله الأدبية والفكرية فحسب، وإنما كذلك من حياته وتجاربه وخبراته التى جعلت من العمل والفعل مجاله وميدانه الخاص، ومن الالتزام بقضايا عصره، المفتاح الذى يفسر كل ما التزم به ودافع عنه ليس فقط بالفكر والقلم، وإنما بالفعل والتصدى والأداء منذ مغامراته واستكشافاته التاريخية فى الهند الصينية وهو فى بداية العشرينيات من عمره، أو باهتمامه بالفورات التى كانت تعتمل فى آسيا، وبأسبانيا الجمهورية، ومقاومته للنازية، ومشاركته فى المقاومة الفرنسية، وأخيرا باهتماماته الإنسانية.

ويستوقف نظر مؤرخى أندريه مالرو عددا من الملامح والعلامات التى ميزت حياته وفكره، وسواء فيما يتعلق بالإطار

الفكرى الذى طوره لنفسه، أو احتفائه بعنصر الخلود، وانشغاله بالموت، أو موقفه من عدد من القضايا الفكرية والفلسفية والسياسية مثل الدين والماركسية، ودوافع ارتباطه بالسياسة، وبالشخصية التى ارتبط بها فكرا وعملا وهى شخصية الجنرال ديجول. أما السؤال الرئيسى الذى ألح على عدد من مؤرخيه فقد كان يدور حول : لماذا آسيا التى افتتن بها مالرو منذ بدايات حياته، وجذبه فكرها وفلسفاتها وحضاراتها، وبدت فى خبراته الحية، وكذلك فى أعماله الروائية والفكرية، ولعل أول ما يستوقف مؤرخيه هو تطويره لما يقارب الكراهية لكل ما يعتمد على التنظيم أو المؤسسة، فهو لم يتلق تعليما منتظما من خلال معاهد أو كليات، وإنما تولى تعليم نفسه، كما كان هو وبشكل شخصى ومباشر الذى تولى عملية التنقيب عن الآثار فى الهند الصينية فى مقتبل حياته ولم يعتمد فى هذا على مؤسسة رسمية، واستمر ارتباطه بالحرب الأهلية الأسبانية حتى أصبحت حربا تقليدية. واجتذبته المقاومة الفرنسية بأساليبها ومناهجها غير التقليدية وبالأخطار التى تضمنتها، كما اعتزل مالرو السياسة حين اعتزل ديجول وتصور أن السياسة سوف تعود إلى قواعد اللعبة القديمة، هذه العلامة المميزة لفكر مالرو

وحياته هى التى ستفسر لماذا كان مكروها من اليمين ومن اليسار، وهى التى ستفسر موقفه من الدين كمؤسسة، ومن الماركسية والشيوعية كمذهب ونظرية.

ومن العلامات المميزة لفكر مالرو، احتفائه بعنصر الخلود خاصة فى علاقته بالفن والخلق الفني سواء فى الحاضر أو الماضى، فهو كما عبر يشعر بالراحة وبشكل متساو مع أى فنان سواء كان حيا أو ميتا، وأنه من الأمور الطبيعية أن يكون على علاقة صداقة مع كل من: مايكل أنجلو وبروك وتولوستوى وبيكاسو وبودلير ونيتشه ودانتى والكسندر الأعظم وماوتسى تونج وستندال ولورانس وماتيس ودوستويفسكى. ويبدو عنصر الخلود بشكل واضح ومطلق فى مذكرات مالرو :

فهو يتذكر كل شئ، ورغم ذلك يظل حرا لا يقيده قيد، وهو بمعرفته الضخمة وفكره المتجدد دائما، يظل كل فجر بالنسبة له هو مجرد يوم جديد، حيث لم يحسم أو يستقر شىء بشكل نهائى، فالتحدى مستمر، والمفاجآت لا تتوقف، الأمر الذى يجعله كما يقول مؤرخه مارتن دى كورسيل : يعيش فى نوع من النشاط الفكرى الدائم غير أن مثل هذا النشاط لا يعنى أو يعكس ضجرا أو مللا، كما لا يجعل تحليله للأحداث والقضايا

يجرى بطريقة تتسم بالادعاء، أو يجعله ينظر إلى نفسه كشخص غيرى يتميز عن غيره.

أما الملمح الأخير لفكر مالرو فهو انشغاله بالموت، وكان يقول «إن قتل الموت هو الإجابة النهائية على كل متاعبنا» وما ظل يبحث عنه هو معنى الحياة، ومن ثم الموت كما يظهر فى مختلف الحضارات والديانات. ورغم أن فكرة الموت قد استحوذت على مالرو إلا أن هذا لم يكن يعزز الخوف منه، وفى نفس هذا «أن الأهمية التى علقتها على الجانب الميتافيزيقى للموت قد أوحت أنها تتملكنى».

والواقع أن انشغال مالرو بفكرة الموت، كان نتيجة للأحداث التى مرت به، ومهاجمة الموت له على أكثر مستوى : مستوى أفراد عائلته، وموت الجنرال ديجول، وبحيث اكتسب هذا القلق الميتافيزيقى من الموت بعدا شخصيا جعل أحد أصدقائه يقول:

«إن مالرو هو أتعس إنسان عرفته» لذلك نجد أن عمله مخضب بالمعاناة الإنسانية، وفيه نجد أن الشر والموت متحققان فى كل مكان.

وأهمية هذه العلامات المميزة لفكر مالرو هى أنها تفسر مواقفه من عدد من القضايا مثل الدين، والماركسية، وطبيعة

ودوافع ارتباطه بالسياسة والشخصية التى ارتبط بها فكرا وعملا وهى شخصية الجنرال ديجول.

ففيما يتعلق بعلاقته وموقفه من الدين، رغم أنه كان مفتونا بالتفكير الدينى والمفاهيم الدينية، إلا أنه لم يكن أبدا مهتما بالدين كعقيدة أو مبدأ، ولكن ما كان يهمه فى الدين هو ما يصنعه فى هؤلاء الذين يمارسونه، وكيف يسهم ويساعدهم لأن يجدوا فى أنفسهم شجاعة كافية لكى يعلو على عدميتهم. ولعل ما يعبر عن علاقة مالرو بالدين ما يرويه أحد أصدقائه - وكان من رجال الدين وتزاملا فى الحرب والمقاومة وكانا دائمى النقاش حول قضايا مثل: العلو والسمو فوق الوجود المادى والإيمان بالله - قوله إنه كان يجد فى مالرو - اللا أدرى - عقيدته الخاصة وأنه كان بالطريقة التى يتصرف بما يذكره ببعض وجوه عقيدته الدينية ويكشف له بعض أبعادها، التى لم يفكر فيها. كما يروى هذا الصديق أنهما فى أحاديثهما عن الدين، كان مالرو يعبر عن أمله فى أن مدنية الغد سوف تنطبع بشكل عميق بالعقيدة الدينية وأنه يلمس بالفعل ما يعد ويبشر بذلك وأنه دون ذلك لن تكون قابلة للحياة.

أما فيما يتعلق بعلاقة مالرو بالماركسية، فإنه كما عبر مارتين

دى كورسيل فى نقاش له مع مفكر بريطانى، فإنه من الأنسب أن نسميها «مالرو والمغامرة الماركسية» أو «مالرو وإغواء الماركسية» والأصح أن لا نتحدث عنها على الإطلاق لأن مالرو لم يكن ماركسيا بالمعنى الدقيق للكلمة، فهو لا يبدو أنه الرجل الذى يؤمن كثيرا بالعمل وسط فريق، أو يقود حزبا، أو يغير مبادئه ومعتقداته لكى يوائم نفسه مع بعض الحركات الجماهيرية لكى يشعر أنه يقود الجماهير أو على الأقل يسير معهم نحو بعض الأهداف، بل إنه لا يتورع عن أن يفصل نفسه إذا ما احتاج لذلك لكى يتبع هدفه الذاتى، هذا فضلا عن رغبته الأكيدة فى العزلة، غير أنه فى الفترة التى ارتبط فيها مالرو بالماركسية - ما قبل الحرب الثانية - لم يكن ذلك من قبيل الراحة الفكرية، وإنما كانت فى الحقيقة التزاما، ورغم أن الشيوعيين قد ظهروا فى رواياته وخاصة فى «الشرف الإنسانى» بصورة جيدة، إلا أنهم كانوا كذلك كأفراد ورجال، وكان التركيز على دافعهم الرئيسى وهو احترام الكرامة الإنسانية أكثر من عقيدتهم السياسية. وفى سنواته الأخيرة سوف يصبح مالرو معاديا للشيوعيين أو على الأقل لأنصارهم فرنسا، وسوف يهاجمهم ويهاجم دعايتهم وميلهم لمبدأ الغاية

تبرر الوسيلة. بهذا المعنى يبدو أن انجذاب مالرو للشيوعيين كان بدوافع رومانسية وليس لارتباطات فكرية فقد نظر إليهم كأبطال ومدافعين عن المقهورين، وفى أسبانيا احترم كفاءتهم والتزامهم، أما فى رواياته فليس هناك ما يشهد على أنه تقبل جوهر النظرية الماركسية.

ومن القضايا التى تثيرها حياة مالرو وتمثل جانبا مهما فيها هى علاقته بالسياسة وارتباط شهرته الأدبية منذ البداية بشهرته كمحارب ومناضل سياسى، والوقع أن سنوات ما بين الحربين فى فرنسا كانت سنوات الكاتب الملتزم، حيث استخدم كتاب مشهورون بشكل علنى مواهبهم ومراكزهم الاجتماعية لتأييد حركات اجتماعية وسياسية وفكرية، ومنذ هذا الوقت أصبح لكتاب مثل : آندريه بريتون، وجورج بيراترس، ولويس أراجون، وروشيل وآندريه مالرو وكان أصغرهم نفوذًا دائمًا، ليس فقط على معاصريهم ولكن أيضا على أجيال قادمة. وكانت كل هذه الأسماء تمثل حالة فريدة وخاصة وهو ما كان ينطبق بشكل خاص على آندريه مالرو، فقد أصبح مشهورا حين كان ما يزال شابا صغيرا وحيث ارتبطت مكانته الأدبية بسمعته كمناضل سياسى ومفكر رائد لجيل اليسار الشاب. ورغم هذا فإن قلة من

الكتاب هي التي هوجمت بشكل مرير مثلما هوجم مالرو، وقد تعدد الهجوم عليه بعد أن أصبح ديجوليا. وفي بداية الخمسينيات تخلى مالرو عن كل نشاط سياسي لكي يكرس نفسه لدراساته واسعة النطاق عن فلسفة الفن، غير أن هذا لم يوقف الجدل حوله وإن كان قد فقد حدته تدريجيا. وفي عام ١٩٥٨ تولى مالرو وزارة الثقافة الأمر الذى أحيا الهجوم عليه، وتعرضت كل مبادراته ونشاطات وزارة الثقافة للهجوم الشرس، وقد عكست هذه الحملة عليه من مثقفي اليمين واليسار المعارضة الكاملة منهم لشخص ديجول وسياساته وكل معاونيه، وفجأة وعلى غير توقع ظهرت «اللامذكرات»، عام ١٩٦٧ وأوقف أكثر نقاد مالرو هجومهم، بل إن الذين عرضوا الكتاب رفعوا مالرو إلى السماء وكأنه تحول بشكل كامل إلى مالرو الذى كان موضع ثناء وتقدير.

ولكن أين كان يقف مالرو سياسيا ؟ يجيب السير جومبيوتش مؤرخ الفن، والأستاذ بجامعة لندن، إلى أن الإجابة على هذا السؤال تكمن فقط في ضوء كل ما فعله وما كان يمثله في مجرى حياته النشطة والنضالية والخلاقة، وفي هذا السياق، فإنه يمكن ذكر حقيقتين : فعلى النقيض من معظم الكتاب

الفرنسيين بمن فيهم المعادين للفاشية والشيوعية. فقد رفض مالرو نشر أى شئ فى فرنسا من خلال فترة الاحتلال النازى، وثانيا، فهو لم يغير أو يعيد كتابه ولو صفحة واحدة من كتبه التى أعيد طبعها فقد تمسك ودافع عن كل شئ نشره، الأمر الذى يدهش من تفهم عمله والمنطق الداخلى لتطوره.

ويعتبر السيد جومبيريتش أن تطور مالرو السياسى وتحوله إلى النضال السياسى يوحى أنه لم يحدث فجأة، ولكنه مر بتجربة من المعاناة والرؤية وملاحظة معاناة أبناء الهند الصينية والظروف التى يعيشونها وبشكل جعله يكتشف أنه لن يكون من السهل عليه أن يشهد هذا ويظل صامتا وكأن شيئا لم يحدث. ومثلما سنرى فى تجارب مالرو فى آسيا واقترابه من حضارتها، فإن حياة مالرو المبكرة فى الهند الصينية وإقامته فيها قد طورته فى نفس الوقت إلى ثورى معاد للاستعمار، وقد كان فى هذا - مثل نواح أخرى - رائدا. فصراعه الحاد المتزايد مع الطبقات الحاكمة كان يلهمه ليس فقط المصالح القصيرة أو الطويلة الأجل للبروليتاريا الغربية أو الفرنسية، ولكن أيضا التاريخ عندئذ من أجل حرية وهوية العالم الثالث.

ولا تذكر حياة مالرو السياسية إلا ويذكر معها علاقته

بالجنرال ديجول والديجولية - كمفهوم وفكر، وليس كحزب سياسى - ويتوقف الذين أرخوا لهذه العلاقة عندما يبدو من خضوع مالرو لشخصية ديجول ونفوذه، غير أن فى تحليل هذه العلاقة من المهم أن نتذكر أن خصائص مالرو الفكرية والشخصية تلك أكسبته مكانة متزايدة، وإحساسه بها - جعلته لا يخشى من أن يضع نفسه في ظل شخصية بارزة ومرموقة مثل ديجول لأنه كان يدرك أن ليس هناك ما يخسره، ولإدراكه أيضا أنه كلما عظم قدر الإنسان، كلما قل ما ينقص من قدره حين يضحى بنفسه، وهكذا فلم يكن هناك فى هذه العلاقة شئ يسلب أو يؤثر فى مكانة مالرو بين الأصوات العظيمة لفرنسا، وبالنسبة له، فإن دخوله فى عصر ديجول كان مثلما يدخل الإنسان نظاما دينيا وإن كان مالرو قد أضاف إليه الكثير، أما ديجول فقد رأى أن مالرو ينتمى إلى نفس العائلة التى ينتمى إليها، وأنه فى شخص مالرو سوف يجد مثقفا إنجازه ليس فقط فى الكتب ولكن فى الفكر الذى سيولد الفعل والعمل. وهكذا فإن الرجلين اللذين قدر لهما أن يسيرا جنبا إلى جنب لمدة طويلة بديا فى نفس الوقت متشابهين بشكل غريب ومختلفين بنفس الدرجة، فقد كان اليقين يميز أحدهما، والتساؤل يميز الآخر،

وقد انغمس ديجول فى العمل كمحترف، ومالرو كمغامر، ولكن بالنسبة لمالرو كانت المغامرة هى البعد الذى بدونه يستحيل الخلق ومثلما يروى : Gostom Palewski، والذى كان زميلا لمالرو فى العمل مع ديجول، فإنه ببساطة الرجال العظام، وافق مالرو على العمل مع ديجول، الذى ألقى بنفوذه الطاغى عليه، لأنه أدرك الفرص التى يتيحها ذلك لفرنسا وكانت تتجسد فى ديجول، وفى تقدير بالوسكى، إن علاقة مالرو بديجول، والرابطة التى ربطت بينهما تبدو من العمق والأهمية بحيث تقارن بالتأثير الذى تركته كتب وأعمال مالرو على ضمير الجيل الذى عاصره ويصوره تعتبر ذكرى هذه الرفقة الطويلة التى ربطت بين الرجلين ليس لها مثيل منذ علاقة فولتير بفردريك الأعظم. والتى انتهت بشكل سيئ، ومنذ ذيدرو وكاترين الثانية، وإن كانت قد قامت على المظاهر الزائفة، أما ديجول ومالرو فقد التقيا فوق القمم والمرتفعات حيث توحدا ولمدة ٢٥ عاما تابعا من خلالها حوارا طويلا وخصبا بالنسبة لكل منهما، وهكذا فسوف تراهما الأجيال التالية يقفان جنبا إلى جنب يأسران الخيال ويدعم كل منهما صورة الآخر.

البعد الشرقى
فى حياة وفكر أندريه مالرو

فى احتفالات فرنسا بمرور خمسة وعشرين عاما على رحيل أندريه مالرو (١٩٠١ - ١٩٧٥)، لاحظ الذين تابعوا هذه الاحتفالية أنه مع تعدد مظاهرها إلا أنه غاب عنها بعد مهم ومميز لمسيرة حياة وفكر مالرو ألا وهو تجربته وخبراته واتصاله الحميم بحضارات الشرق الأقصى وعقائدها وحكمائها، وبشكل يجعل من هذه الخبرات جزءً أساسيا فى ميراث مالرو، ويجعل من الصعب فهم، أعماله الكبرى دون التعرف على هذه التجربة. وهى ملاحظة مشروعه وفى موضعها. فقد تلازمت خبرة مالرو الآسيوية مع بداياته وتطوره الفكرى منذ زيارته الأولى للهند الصينية فى مطلع العشرينيات، وظلت هذه الخبرة تلازمه وتسهم فى تشكيل اتجاهه الفكرى والروحى والسياسى، وبشكل انعكس بوضوح فى أعماله الفكرية والروائية الكبرى : «غواية الغرب»، «الفاتحون»، «الطريق الملكى»، والوضع الإنسانى».

والواقع أنه مثلما عبر مالرو نفسه فإن «خبرات الإنسان وتجاربه هى التى تحدد موقعه»، فإنه فى تتبع تفسير افتتان مالرو بآسيا وخبراته فيها وما أسهمت به فى صياغة اتجاهه

الفلسفي والفكري، فإن مثل هذا القول ينطبق على مالرو نفسه.

فبين أعوام ١٩٢٣ - ١٩٢٦ قام مالرو بزيارتين للهند الصينية، وكانت تجربة صعبة وشاقة، تعلقت إحداها بالآثار، والثانية بالسياسة، ومنذ هذا التاريخ فإن طريق الفن وطريق العمل والفعل سوف يجريان جنبا الى جنب فى حياة مالرو. وقد منحته إقامته الأولى فى بنوم بنه وسايجون الفرصة لكى يراقب عمل الإدارة الاستعمارية عن قرب وحيث شاهد هذا النظام ينحدر إلى أقصى أشكال الاستغلال، وفى كمبوديا، وأكثر من ذلك، فيتنام، رأى مالرو شعبًا فخورًا بحضارة طويلة ذات تقاليد يعامل تقريبا معاملة العبيد والغرباء عن أرضه، بينما يستخدم بيروقراطيون فاسدون وقصيرى النظر نفوذهم لتكوين ثروات ضخمة، وقد أصبح هذا النظام يمثل بالنسبة لمالرو رأسمالية أو برجوازية الطبقة المتوسطة فى أسوأ صورها. وقد اكتشف مالرو أن هذا النظام الاستعمارى الفرنسى إنما يتناقض بشكل مباشر مع معتقداته الشخصية الإنسانية العميقة حيث كان يريد للفرنسيين وأبناء الهند الصينية أن يعيشوا معا لاكسادة وعبيد وإنما كبشر وعلى قدم المساواة. ولأن أهل هذه البلاد لديهم حق أساسى فى نفس الفرص الاقتصادية والتعليمية، ونفس الحق

فى العدالة والحريات الشخصية مثل الفرنسيين، فإن إنكار هذا الحق عنهم ومعاملتهم ووضعهم فى مرتبة أدنى إنما هو خيانة لتقاليد فرنسا الطويلة. وفى عام ١٩٢٥ وقبل رحيله من الهند الصينية وزيارته الأولى بها كتب مالرو مقالا وجهه لأصدقائه ومؤيديه يقول فيه : «إن الشعب الفرنسى لن يسمح بالآلام التى تتحملونها أن تحل عليكم باسمهم. إن الصوت العظيم للشعب يجب أن يرتفع لكى يطلب من قادته توضيحا لكل هذا الأسى والظلم الثقيل والمهلك الذى يحوم بشكل قاهر على سهول الهند الصينية» وبعد وصوله إلى باريس شرع مالرو فى العمل من أجل قضية الهند الصينية، ولكن نضاله سرعان ما اتسع الى نطاق أبعد من مجرد اتهام النظام الاستعمارى بالفساد والتعسف، وبدأ يطالب بإصلاحات فى الحكومة الفرنسية نفسها حتى يمكن تحريرها من سيطرة البرجوازية والطبقة التى كانت تمثل بالنسبة أن أسوأ عناصر الرأسمالية الغربية. فى هذا النضال المتسع أصبحت مشكلة الهند الصينية تختلط باهتمامات أوسع، ولم يعد مالرو يتحدث فقط عن الهند الصينية وخططه للاصلاح هناك، وإنما امتد ليشمل مطالبته بإصلاحات سياسية واجتماعية بعيدة المدى فى فرنسا ومستعمراتها. وبهذا

المعنى فإن تجربته المبكرة فى الهند الصينية كانت تجربة حاسمة ومهمة فى حياته. وكما يلاحظ : Welter Lanylois، أستاذ الأدب الفرنسي، والذى يمتلك أكبر مجموعة من الوثائق عن مالرو، فى تاريخه لتجربة الهند الصينية فى حياته، أى مالرو الشاب قبل سفره إليها، لم يكن على الإطلاق مندمجا فى القضايا السياسية والاجتماعية، فانشغاله بالمسائل الأدبية والفنية جعل اهتماماته كلها جمالية، ولكنه حين أصبح وجها لوجه أمام الظلم بدأ ضميره الاجتماعى يستيقظ. وفى تعليق له ألمح إلى الظروف التى حولته من مثقف هاوى إلى ثورى اجتماعى : «بالنسبة لى فإن الثورى يولد من المقاومة. دع إنسانا يشعر بالمعاناة، إلا أن هذا لا يكفى أن يصنع منه ثوريا، ولا يتحقق ذلك إلا عندما يواجه مقاومة فى اللحظة التى يقرر فيها أن يتدخل فيها نيابة عن هذه المعاناة»، وقد كانت المقاومة العنيفة من قبل الاستعماريين المحافظين ومقاومتهم العمياء لأى تغيير، ولتصحيح سوء استخدامهم لسلطتهم ضد أهل البلاد الأصليين، هو الذى جعل مالرو يتحول بشكل متزايد إلى مصلح اجتماعى بل والى محارب، وقد كانت اهتماماته الاجتماعية وراء ابداعاته وقممه الأدبية والفلسفية كما تمثلت بشكل خاص فى

«الأمل»، «الشرط الإنسانى».

وقد توازت تجربة مالرو الحية فى الهند الصينية مع اهتمامه وانجذابه فكريا وفلسفيا إلى الفكر والفلسفات والحضارات الآسيوية وخاصة فى مراكزها الرئيسية فى الصين واليابان والهند. فقد كان مالرو مهتما بالصين منذ شبابه، وشأنه شأن عديد من الفرنسيين بين الحربين، فإنه لم ينج من سوءات القرن الجديدة وحاول أن يجرد نفسه منها بالانغماس فى العمل، ويبدو أن الصين لم تقدم له فقط الفرصة للنشاط الثورى وإنما أيضا إمكانية «القطيعة مع الماضى الأوروبى» والفرصة لمعالجة مرض حضارته. ويقع وراء اهتمام مالرو بالشرق عموما قراءته لأعمال الفلاسفة الصينيين، وإن كانت الفلسفتين الأساسيتين اللتين استوعبهما وكانت مركز اهتمامه هما الكونفوشيوسية، والتاوية. وقد درج النظر حتى فى الصين - إلى الكونفوشئيوسيه كفلسفة فى بعض الأحيان وكدين فى أحيان أخرى، ويبدو ان مالرو قد مال الى وجهة النظر الأولى حيث فصل الكنفوشيوسية عن الدين، وركز أكثر على الدور الإنسانى والاجتماعى الأساسى لهذه الفلسفة، ودلل على أن الكونفوشيوسية قد حددت قاعدة سلوك الانسان تجاه ذاته وتجاه جاره، وبتوضيحه لأقوالها

المأثورة، بيد أن الصينيين مشربين بنوع من الهدوء، الذى يستبعد إمكانية الصراع، وذكر بما اعتبره كونفوشيوس عن الرجل العظيم بأنه «الرجل المعفى من الأسف والحزن». ووفقا لكونفوشيوس فإن الفردية والشخصية ذاتها شيئ غير متصور فى الصين، وعلى النقيض من الغربيين، فإنه ليس لدى الغربيين رغبة فى أن يكونوا على وعى بذواتهم كأفراد، وهو مفهوم كانت فى الفكر الصينى، وهو ما جعل ماوتسى تونج يقول مالرو : إن الفردية الغربية ليس لها جذور بين الجماهير الصينية. وغياب فكره الفردية فى الشخصية الصينية أثرت بشكل كبير فى الغربيين وثبت أن لها جاذبية كبيرة لديهم، ورأى فيها المثقفين الأوروبين الشباب - بما فيهم مالرو - الدواء النهائى للفردية الرائدة لمدينتهم. وربما كان التزام مالرو بالعمل الثورى متصلا بهذا الأمل. نجد أن اهتمام مالرو الكبير بالكونفوشيوسية لم يحل دون ينتقد بعض جوانبها، واعتباره أن بعض تعاليمها وقيمها وشعائرها قد جلبت على الصين من الضرر أكثر مما سببته لهم من خير. يتساءل الباحث الصينى Chang Meiyuan إن كان مالرو قد تأثر بهذا النقد بما بدأ يتشكل بين الصفوة المعنية ذاتها من خلال النصف الأول من القرن العشرين

وبتأثرها بالحضارة الغربية من نقد ولوم للكونفوشوسية واعتبارها مسئولة عن تخلف الصين، ومن خلال صلاته المنتظمة بالمثقفين الصينين، لم يكن فى وسعه إلا أن يتأثر بشعورهم تجاه الكونفوشيوسية.

أما المذهب الآخر فى الفكر الصينى الذى اهتم به مالرو فهو التاوية والذى كان – على النقيض من الكونفوشيوسية أكثر اهتماما بمشكلات الإنسان على الأرض وقد كان مالرو من المثقفين الفرنسيين الذين انجذبوا لفلسفة Lao - tse، ولم يكن يرى الصين أو يتصورها بدون التاوية، وبالنسبة له فقد كانت هذه الفلسفة تمل أكثر خصائص الصين الجوهرية. ويلاحظ أنه فى الوقت الذى مرت فيه معظم أعمال كونفوشيوس بصمت فى كتابات مالرو، فقد كان اهتمامه بشرح وعرض فكر لاوتسى واضحا، واعتبر أن أعماله من أهم الكتابات الفلسفية الصينية. وحين تعرض لنقد التاوية فقد فعل ذلك بشكل أكثر حيدة. ومن خلال شخصيته الصينية يقول لنا مالرو : «إن فقدان اليقين الروحى عبر العالم»، قد أثار اهتماما متجددا بالتاوية بين الصينيين.

فالشباب منهم يشعر بالحاجة للحصول على ثقافة الغرب

ولكنهم لا يستطيعون التخلى عن الفكر الصينى القديم. وقد تحولوا للتاوية لأنها تبدو أنها تشبع رغباتهم وتعطيهم قوة أعظم. ولكن هل كان الاهتمام الجديد بالمدرسة التاوية مهما بالشكل الذى أوصى به مالرو فى «أغواء الغرب» ؟ وهل تستجيب التاوية حقا لآمال الشباب الصينى المثقف ؟ وهل تقدم علاجا يمكن أن يخلص رجل القرن العشرين من القلق الميتافيزيقى ؟ يعتقد الباحث الصينى Chang Yuang أن الإجابة بالنفى، ذلك أن الشاغل الرئيس للتاوية هو المحافظة على الحياة، واهتمامها ينصب على تفادى الشر وأخطار العالم الذى نعيش فيه، وأكثر من ذلك فإنه فى النصف الأول من القرن العشرين كان المثقفون الصينيون الشبان مشغولين بمشكلات إعادة بناء بلادهم بينما كان القلق الميتافزيقى يمثل مرتبة ثانية بالنسبة لشعورهم الوطنى، ولذلك من الصعب رؤية كيف يمكن أن تساعد التاوية وإعادة بناء الصين.

على أية حال فقد مارست الفلسفة الصينية وخاصة أفكار كونفوشيوس ولاوتسى نفوذا محددا على فكر ماكرو، وهو نفوذ يمكن أن نلمسه عبر كل أعماله ولكنه يظهر بشكل خاص فى «اغواء الغرب» فالمثقفون الغربيون الشبان يودون تحرير أنفسهم

من أمراض القرن الجديدة بمساعدة مفاهيم من الفكر الصينى، تماما مثلما يريد الشباب الصينى التخلص من ثقافتهم القديمة غير العصرية بمساعدة الأفكار المستوردة من الغرب، غير أنه لسوء الحظ لم يكن أيا منهما مستعدا لتبادل متناسق بين ثقافة وأخرى.

أما الهند ورويتها والتأثير الذى تركته على مالرو فقد نبع أساسا من أنه وجد نفسه فى تناسق وتآلف مع المثل الأعلى الهندى حول الإنسان الكامل The Penfected man، فى التفكير الهندى يرفض المحاولات الفكرية الخالصة، ذلك أن إحدى النقاط المحورية فى الثقافة الهندية هو الارتباط الحقيقى بالعمل المنزه عن الأنانية لدفع التطور الأخلاقى والاجتماعى، وقد مكنته ثقافته العميقة أن يتتبع الطرق الهندية فى التفكير، وفى بحثه المخلص عن الحقيقة حول الحياة والموت، قدمت له الفلسفة الهندية إيجابات لم تكن أوروبا قادرة على أن تقدمة له، وقد اكتشف مالرو في الهند ثقافة الروح «اليوجا» والتى لم تكن بأى حال غريبة عنه.

وبالنسبة لمالرو فإن الفن ليس مجرد حلية تتزين بها المدنية وإنما تعبيرا عن أرقى خصائصها، لذلك فقد رأى فى التماثيل

الحالمة للمعابد الهندية قيما سماوية. كما قدمت له معرفته العميقة بالثقافة الفرنسية واللاتينية مداخل العالم الهندى، ومكنه الفن الهندى من إعادة تقييم التفكير الغربي ورؤيته فى أبعاد جديدة. ومن خلال زيارته للمعابد الهندية فتنه الفن المقدس للهندوس مؤكدا لهؤلاء الذين يتطلعون إليه أنه يتضمن عالما سريا ينقله لمن يشاهده دون أن يكشف عنه النقاب. وخلال زيارته لهذه المعابد كان يشارك فى تبادل صامت للأفكار والمشاعر مع المثول الجميل للآلهة على الأرض. وفى كتاباته اعترف مالرو أنه فى الهند ومعابدها وأمام مشاهد الفن الهندى فإنه يشعر كلية أنه فى بيته «وفى الحديقة الليلية لأحلام الهند العظيمة».

وفيما يعتقد الباحث الهندى Girije Mookerjee أن صاحب «الفاتحون» كان الأول فى العالم الذى يدرك المعانى الأخلاقية للصراع الهندى من أجل الحرية، وقد ظهر ذلك بشكل واضح فى «اللامذكرات» حيث ذكر أن كل إنسان يعرف أن هدف غاندى النهائى كان هو تطهير الهند The Parfication of In-dia، وحيث كان الاستقلال هو فقط أحد نتائجها الرئيسية.

وبنفس الاعتقاد فى تأييد القضايا العادلة وقف مالرو إلى

جانب المحاربين فى شرق البنغال، ولم يكن التظاهر أو الادعاء هو الذى قاد مالرو وهو فى سن السبعين لكى يقدم نفسه كمتطوع إلى القوى المحاربة فى البنغال، فما كان يحركه أن حياة ملايين الرجال والنساء كانت فى خطر، وكذلك الميراث الثقافى لكتاب لامعين مثل: نازرول إسلام ورابندرات طاغور.

ومثلما يستخلص موكورجى فى تفسير انجذاب مالرو لعالم الهند فإن حبه للعدالة ورؤيته العميقة للفن - واللتان تمثلان القيمتان الأساسيتان فى كتاباته وحياته - كانتا تتناغمان تماما مع المثل الأعلى للهندوسية حول الإنسان فى بحثه عن الكمال وعن الحقيقة الأبدية وكان فى هذا على إتفاق كامل مع نهرو حين ذكر له «إننا يجب أن نقف ثابتين على الأرض، ولكن علينا أن نرفع رؤوسنا عالية ...»، ومع الجنرال ديجول فى أحد حوارته معه «حين يسير كل شيئ بشكل خاطئ، وفى بحثك عن قرار، تطلع نحو القمم حيث لا ازدحام»، ويتصادف أن تكون هذه النصيحة الجميلة والمؤثرة للجنرال ديجول من صياغة أحد الهنود.

أما عن مكان اليابان فى فكر مالرو وتأثره بالحضارات الشرقية فإنه يمكن القول ابتداء مع الشاعر والكاتب اليابانى :

Tado Takemoto، والذى نقل أعمال مالرو إلى اليابانية، إن اليابان ليس لها وضع خاص فيما ينسب لمالرو ولإسهاماته الكبيرة فى إحياء أصوات الحضارات القديمة،وإلى جانب اليابان، ومن أعوام ١٩٢٣ - ١٩٣٢ تعددت أسفار مالرو وبشكل واسع فى كمبوديا واليابان وأفغانستان وباكستان والهند ومنغوليا والصين وحتى مملكة سبأ القديمة فى اليمن، وعند النظرة الأولى فإن الرصيد الروحى الذى حمله مالرو من هذه الرحلات يبدو أنه تبلور بشكل خاص فى «أصوات الصمت»، والتى تعطى انطباعا بلحن سبنجلرى حول تعدد الحضارات، فلماذا تبرز اليابان بوجه خاص ؟ يجيب تاكا موتو: إنه من الصعب الحديث عن لقاء مالرو واليابان دون استخدام عبارة السكينة أو الصفاء Serenity، وهو مفهوم أساسى فى فكر مالرو، ويعتبر من أهم ما ترسب لديه من لقاءاته بالحضارات الآسيوية، ورغم أن الصفاء قد لا يكون احتكارا يابانيا حيث اكتشفه مالرو فى الصين عام ١٩٢٥ مما انعكس بشكل واضح فى «إغواء الغرب» إلا أننا نستطيع أن نقوله باطمئنان أن لقاء مالرو مع الحضارات اليابانية أكثر من أى شيئ آخر قد وسع إدراكه لهذا المفهوم ولتأثيره عليه.

وليس من الغريب بعد هذا المكان الذى شغلته الحضارات الآسيوية وفلسفاتها وفنونها فى فكر آندريه مالرو، وارتباطه العميق بالمشكلات والقضايا الفلسفية والروحية التى تتضمنها هذه الحضارات الآسيوية، أن يتساءل مؤرخو حياة مالرو والذين حاوروه وتحاوروا حوله : لماذا آسيا ؟ ومن الإجابات التى قدمت على هذا التساؤل ما قدمه المفكر البريطانى Ishia Berlin الذى أكد أن مالرو قد وقع تحت سحر آسيا وكل ما تمثله، ويذهب فى تفسير ذلك بأنه ربما أراد أن يضع الحضارة الغربية أمام تناقض أو صداع يثير فيها حيوية جديدة تخلق هذه الشرارة، التى تتولد عن وضع حضارتين - على المستوى الفكرى والفلسفى - وجها لوجه، وعلى هذا ففى رأى برلين أن ما كان يحرك مالرو ويطمح إليه هو حدوث تصادم فى القيم ينتج عنه شيئ جديد، وليس مجرد تطور تدريجى موجود فى حالة جنينيه. كذلك يستدعى من حاولوا تفسير البعد الشرقى فى حياة مالرو ما كان يقوله فى تفسير تأثير هذه الحضارات عليه من أن «استحواذ هذه الحضارات علىَّ هى التى تعطى حضارتى وربما حياتى نبرتها الخاصة».

فاتسلاف هافيل
الرئيس الحائر بين الفكر والسياسة

عبر عملية التحول الثورى التى شهدتها بلدان أوروبا الشرقية ١٩٨٩ وانهارت معها نظمها الحاكمة، وأحزابها وشخصياتها، برزت شخصيات جديدة تقود وتوجه هذه العملية، كان فاتسلاف هافيل بتاريخه الدرامى أكثرها تميزا.

وقد وجد نفسه، وهو الشخص الخجول المتأمل، وعلى عكس إرادته، فى قلب الأحداث، وهو الذى كان وقبل أن يصبح رئيساً لبلاده بأقل من عام فى السجن بعد اعتقاله والحكم عليه وهو يضع باقة من الورد على قبر طالب الفلسفة الذى أحرق نفسه احتجاجا على الغزو السوفيتى لبلاده عام ١٩٦٨، ومن الميدان نفسه الذى شهد هذه الواقعة وجد هافيل نفسه يقود ما سيعرف فى تاريخ بلاده ومنطقته «بالثورة المخملية» كناية على سلميتها وعدم عنفها والتهامها لأبنائها، كما حدث فى بلدان مجاورة، وهو ما كان أساسا بسبب قيادته للتحول فى بلاده، ونفوره من الانتقام وتغليبه الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية.

حدد هافيل منطلقاته الفكرية ككاتب بقوله «فى كل كتاباتى

نقطة انطلاقى دائما هى ما أعرفه من خلال تجربتى الخاصة فى هذا العالم الذى أعيش فيه، وتجربتى وخبرتى الذاتية عن نفسى، وباختصار فقد كتبت دائما عما يعنينى وأهتم به فى هذه الحياة، وما أراه، ما الذى يهمنى ويثير اهتمامى وقلقى، وقد كان أملى دائما أن أستطيع من خلال كتاباتى وبما شهدت عليه من خبرات محددة فى العالم وفى وطنى، أن أكشف ما هو عالمى فى إنسانيته، وأن أستخدم خبرتى المحددة لكى أقول شيئا عن الوجود بوجه عام عن الناس فى عالم اليوم وعن أزمة الإنسان المعاصر، وبعبارة أخرى عن هذه الأمور والقضايا التى تهمنا جميعا».

وحتى كتابته تلك السطور كانت فى ذهنه كتاباته للمسرح، غير أنه لم يكن مجرد كاتب مسرحى، فرغم إنكاره أنه فيلسوف وجهوده فى مناسبات مختلفة لأن يؤكد أنه ليس فيلسوفا وأنه ليس من طموحه أن يشيد «نظاما ثابتا من المفاهيم» إلا أنه مما لا شك فيه - خاصة بعد أن انتقل إلى كتابة المقال وأصبح من أدواته الرئيسية للتعبير عن أفكاره - أن هافيل أصبح يجسد الفكر غير الرسمى الذى يتطلع لتحقيق الحريات المفتقدة : حرية أن يعيش الإنسان فى وطنه وأن يعيش بالشكل الذى يريده

وهكذا فملاحظاته عن نقطة انطلاقه ككاتب لم تكن تلخص فحسب السمات الرئيسية لأعماله المسرحية، وانما أيضا لما سيتطور إليه فكره وكتاباته - خاصة من خلال المقال - عن أوضاع أمته وقضاياها وما يريده لها. وقد وجد هافيل فى تطويره لأدوات وأشكال كتاباته فى المقال شكلا أكثر انفتاحا وحرية ومرونة للتحدث مباشرة إلى أمته وخاصة أوساطها الثقافية وخارجها وعلى مستوى عالمى.

وفى هذا النطاق اتخذ عدد من المقالات بعدا جديدا وصار خطابه المفتوح الذى وجهه عام ١٩٧٥ إلى الرئيس التشيكى هوساك حجر الزاوية للحركة السياسية والثقافية المناهضة للنظام، وأيضا صياغته لما عرف «بميثاق ٧٧» الذى بلور ونظر لأهداف هذه الحركة، فقد كان ذلك تطبيقا عمليا لتحديده لنقاط انطلاقه الفكرى فى كتاباته ومقالاته : «أن يتأمل بشكل متماسك خبرته الذاتية المحددة عن نفسه وعن مجتمعه وعن العالم، ولم تكن الخبرة بهذا المعنى شيئا سلبيا أو يتأتى من ذاته، كما لم تكن شيئا يتصل فقط بالوعى، وإنما كان فوق كل شىء بما ندعو إليه أنفسنا ونعدها برفضنا أو قبولنا للعالم الذى نعيش فيه، إنه الشىء الذى نلزم به ضميرنا».

وقد عالج هافيل بشكل مفصل فى مقالاته المهمة «قوة الضعفاء» The Power of Powerless عام ١٩٧٨، وكانت القضية الرئيسية فى هذه المقالة هى قضية العيش فى الحقيقة والمسؤولية العليا للأفراد أينما كانوا، وبشكل خاص فى تلك المناطق من العالم التى تتعرض فيها الشخصية الإنسانية للخطر، ليس فقط من جانب السلطة، وانما أيضا من جانب زملائهم فى الإنسانية، ولم تكن هذه المقالة شيئا مجردا أو عملا تأمليا، إنما كانت شهادة على خبرة حية كان يعيشها كل فرد فى المجتمع التشيكى، وكل ما فعلته أنها لخصت ووصفت هذه الخبرة وأشارت إلى ما يمكن أن تؤدى إليه. غير أن اكتساب هذه الخبرة المحددة لم يكن بلا ثمن وهو الثمن الذى يتضح من مجرد تتبع تاريخ حياته، فقد نبذ هافيل من المجتمع بسبب أصله الطبقى وجرد من حقه فى فرصة ملائمة للتعليم، وأعقب ذلك عند نضجه سنوات من المضايقات التى تحولت إلى اضطهاد مباشر وإلى محاكمتين بتهم وجهها له النظام، وحكم عليه بأربع سنوات فى السجن أمضى منها ثلاثا وثمانية اشهر قبل أن يفرج عنه لخطورة مرضه ١٩٨٣ ومن خلال هذه الفترة كتب خطاباته ورسائله الجميلة إلى زوجته «رسائل إلى أولجا» وربما

كانت تجربة كهذه أمرا مألوفا فى بلاده ومع شخصيات عديدة، ولكن فى حالة هافيل فإنها لم تعمق حياته فقط، وإنما عمقت خبرته ذاتها، وما يسميه دائما خبرته المحددة عن نفسه وعن العالم.

كما أن هذه الخبرة هى التى أكدت أن نقطة البداية والهدف من كل كتاباته وخاصة فى المقالات، لم تكن عملا تأمليا أو نظريا ولهذا كان يقول «إذا ما نظر إلى مسرحياتى على أنها فقط وصف لنظام سياسى أو اجتماعى معين، فسوف أشعر أنى فشلت ككاتب». وينطبق هذا الشكل أكثر ما ينطبق على مقالاته، ذلك أن هافيل لم يقدم فيها مجرد وصف للنظام السياسى او الاقتصادى، إذ أنها كانت فوق كل شىء بحثا فى عبء الوجود وفى نضال الشعب الشاق لحماية هويته من السلطة التى تريد أن تنتزعها منه، وحول التناقض بين قدرات الناس الحقيقية والدور الذى أجبروا على ممارسته، وحول «مدى السهولة النظرية فى أن نعلم كيف يعيش المرء حياته، ولكن كم من الصعب أن نفهم بعضنا بعضا، وعن الوحدة الإنسانية والخوف والحنين. وأخيرا وما هو أهم، حول الأبعاد الكوميدية - التراجيدية والعبثية لكل هذه الموضوعات».

ورغم أن موضوعات المسرحيات والمقالات تكون كيانا واحدا، فإنها تختلف في أسلوب المعالجة، فبينما تعالج موضوعات المسرحيات «من الداخل» وتكون ما أسماه هافيل «نوعا من التأمل الموسيقى حول عبء الوجود» فإن هذه الموضوعات تعالج في المقالات وتحلل بطريقة «خارجية» أكثر وبأسلوب معملي ما يشكل في الوقت نفسه نداء عاجلا للتجديد والإحياء الروحي وللعيش في الحقيقة التي كتب عنها في مقالاته عن «قوة الضعفاء» ومرة أخرى يستعيد الناس إنسانيتهم ويستأنفون مسؤولياتهم عن العالم، ولكي تتأكد السياسة باعتبارها الأخلاق في التطبيق» وهو ما عالجه هافيل في مقاله «السياسة والضمير».

وقد كانت المسؤولية كمصير الإنسان واحدة من أهم الموضوعات التي شكلت هافيل ككاتب، ويبدو هذا بشكل بارز في تقديمه لرواية تشيكية هي «كتاب الأحلام» التي وصفها بأنها «رؤية عن المسؤولية والإرادة والمصير، وعن المسؤولية التي هي أقوى من الإرادة، وعن مأساة المصير النابع من المسؤولية وعن عقم المحاولات الإنسانية للإفلات من هذا الدور الذي تفرضه المسؤولية عن المسؤولية كمصير» والواقع أنه إذا شئنا أن نبحث

عن شىء لهافيل ككاتب وكمفكر ثم كسياسى فإننا لن نجد شعارا أفضل من شعار «المسؤولية كمصير».

فى ١٩٨٣ وبعد أن بدا دور هافيل يتبلور فى النشاط السياسى، سئل عن نفسه كمعارض ومنشق، وعن علاقة وتأثير ذلك عليه ككاتب فأجاب : «إننى لم اكن أبدا أنوى أن أحترف المعارضة، إننى كاتب أكتب ما أريد أن أكتبه، وليس ما قد يريده غيرى أن أكتبه» ورغم أنه لا ينكر بالطبع أنه له آراء حول العديد من الموضوعات، إلا أنه يؤكد أنه لا ينتمى إلى أيدلوجية معينة أو إلى أى حزب سياسى أو جماعة «فإذا ما قدمت أى شىء فإنى لا أحترم إلا ضميرى فقط، فأنا لست شيوعيا ولا معاديا للشيوعية، وإذا انتقدت الحكومة فليس تلك لأنها حكومة شيوعية، ولكن لأنها سيئة، وأنا لست فى جانب مؤسسة ما كى لا أشارك بشكل محترف فى حملة ضد أى مؤسسة، فأنا أقف فى صف الحقيقة ضد الأكاذيب وإلى جانب الصواب ضد الهراء وإلى جانب العدالة ضد الظلم».

ويفصل هافيل موقفه ككاتب من مفهوم المعارضة والانشقاق «إنه من الصعب تصور أى معنى لها أو أساس إلا خدمة الحقيقة والحياة القائمة عليها ومحاولة إتاحة مكان للأهداف

الحقيقية للحياة، وعنده أن السبيل إلى حياة إنسانية كريمة غنية وسعيدة، لا يكمن فى الدستور أو القوانين الجنائية، وهو فى هذا لا يقدم برنامجا أو مشروعا، وإنما مداخل ومقدمات لما يمكن عمله «فوق كل شىء فإن أى ثورة وجودية يجب أن تقدم الأمل لإعادة التشكيل الأخلاقى للمجتمع وهو ما يعنى التجديد الجذرى للعلاقة بين البشر أو ما أسميه «النظام البشرى» والذى لا يستطيع أى نظام سياسى أن يحل محله، وهذا يمثل تجربة جديدة فى الوجود تضرب جذورها فى العالم، ومعنى جديد للمسئولية العليا وعلاقة داخلية جديدة مع الآخرين ومع المجتمع البشرى، كل هذا يشير بوضوح إلى الاتجاه الذى يجب أن تتجه إليه وبعبارات أخرى فإن القضية هى رد الاعتبار لقيم مثل الثقة والانفتاح والمسؤولية والتضامن والحب».

وفى إحدى مقالاته تحت عنوان «الشاعر اليوم» بلور تصوره للكاتب والفنان «هو إنسان بأفضل معانى هذه الكلمة وعليه أن يعيش حياة يضرب بها المثل، إنه من المستحيل أن يكتب قضايا عظيمة دون أن يكون إنسانا عظيما، إن الفن العظيم والمقنع حقًا لعصرنا يمكن أن يتحقق على أفضل وجه بواسطة هؤلاء الذين يعيشون حياة قائمة على المبادئ وبشكل كثيف، وبدون شكوى،

والذين ارتضوا كبشر طيبين وأخلاقيين مصير الناس العاديين».

بعد ستة شهور على توليه الرئاسة في بلاده قال هافيل «إنى دائمـا أسـأل نفـسى مـا الذى أقـحمنى فى هذا الدور، وأبدو لنفسى وكأنى مدعى فى هذه الوظيفة، إننى أشعر أن شخصا مـا سوف يهبط فى لحظة ويجردنى من السلطة ويزج بى ثانية فى السجن»، غير أن ما كان يختلف عن هذا الشعور هو إقتناعه «أن ثمة أفراد موهوبين يمتلكون الكثير من الحكمة والجاذبية لكى يديروا بشكل عظيم تشيكوسلوفاكيا فى المستقبل».

وتعكس هذه العبارات شعور هافيل بالغربة عن منصبه وعدم الألفة معه، الأمر الذى ظل يلازمه بدرجة ما، كما تعكس ما وصفه هو «بافتقاره الفطرى إلى الثقة بالنفس وشعورى المستمر بعدم التأكد واليقين حول ما إذا كنت مقبولا من حولى يضاعف من هذا افتقارى للبراعة وتأدبى ومجاملتى للناس وقلقى الزائد».

وقد دفعت هذه الصفات حتى المقربين منه وأصدقائه إلى اتهامه بالبراءة، وهى بمعايير السياسة والحكم يمكن أن تكون تهمة، ولعل ما يستدلون على هذه البراءة هو زيارته لواشنطن زيارة رسمية عرض عليه المسؤولون الرسميون الأمريكيون مساعدته فى تسهيل عملية الانتقال الصعبة فى بلادة، فأجاب :

«إننا نعرف ما يجب علينا عمله وكل ما نطلبه منكم هو تأييدكم المعنوى» وحين توجه إلى لندن سئل عما سيناقشه مع رئيسة الوزراء ورجال المال والصناعة فقال «إني سوف أوضح أننا لا نحتاج للمال، إننا نريد النصيحة ونريد أفكارا ونريد أن نتعلم كيف نعمل بشكل شاق» وبشكل رومانسى، تحدث أمام الكونجرس الأمريكى عن «أسرة الإنسان» وهو المثل الذى يشعر أن العالم يبتعد عنه أكثر مما يقترب منه.

غير أن هافيل ما لبث أن واجه الواقع الصعب، وما بدا يصاحبه ويثيره من شكوك أخذت تتزايد كل يوم مع تزايد عدم اليقين حول المستقبل الاقتصادى، ومع تزايد حالات إفلاس عديد من الوحدات غير المنتجة وارتفاع التضخم فى الوقت الذى كان الدعم يرفع فيه عن كثير من السلع والخدمات الأمر الذى تأكد معه هافيل أن الطريق أمامه وأمام تجربة بلاده الجديدة ملىء بالصخور والصعاب، وربما ما أكثر إيلاما له هو ما بدا يلاحظه من تراجعه عند الرأى العام، الأمر الذى جعله يدعو إلى العودة إلى روح الوحدة التى صاحبت الثورة.

ولكى ينقل دعوته إلى الشعب بشخصه راح هافيل يطوف بأرجاء البلاد وكان يتوقف فى الاستراحات عبر الطريق ويدخل

على الناس فى المطاعم الصغيرة ويناقش معهم ويتعرف على آرائهم، ورغم هذا ومع نهاية الصيف الأول لرئاسته بدا الواقع أكبر من جهوده، وبدا يشعر أن الجماهير التى كانت تتجمع للاستماع له تتناقص واختفت الشعارات وما كانت تشيعه من روح الاستبشار وحلت محلها الوجوه الجادة، لكن هافيل كان يستجيب لذلك بقوله أنه ليس صحيحا أن الثورة فشلت، إنها ببساطة لم تنته بعد، وكان يلاحظ أنه حين كان يخاطب الجماهير كانت الروح والحياة تعود إليها وهو يتحدث عن معوقات الثورة وتقدمها ولكن هذه الروح كانت تخمد حين يفشل فى أن يوضح بشكل عملى كيف يتحقق ذلك. وفى هذا تعرض هافيل للنقد الكثير لرفضه أن يتخلص كلية من عناصر الحزب الشيوعى والذين مازال عدد منهم فى حكومته كما بدا «المنتدى المدنى» Civil Forum الذى خاض به انتخابات ١٩٩٠ يتفكك وبدأ من عادوا إلى الخارج يعبرون عن خيب أملهم من الخداع وعدم الأمانة، مما بات يسود المعاملات اليومية، وهى الظواهر التى كانت دون شك تصيب هافيل وهو الرجل الأخلاقى بالإحباط وإن لم يكن يقول هذا علانية.

ولعل من أكبر ما واجه هافيل داخليا المشكلة السلوفاكية

والتى كانت قائمة دائما، لكن النظام القديم كان يكتبها. ورغم شعبيته فى المناطق التشيكية إلا أنه كان يدرك أن شعبيته لم تكن كذلك فى سلوفاكيا، فلم يكن يستقر كرئيس فيدرالى فى براغ إلا بدات التجمعات والمظاهرات أمام برلمان سلوفاكيا تطالب بالاستقلال والسيادة القومية، وفى زيارة له لبرتسلافا عاصمة سلوفاكيا قوبل باستقبال عاصف وبالصفير والصياح الذى يطالبه بالعودة إلى براغ حيث ينتمى. ولكن نفوذ هافيل اليوم فى سلوفاكيا أعظم مما كان عليه منذ عشر سنوات قبل الانفصال. ويبدو الشبان التشيك والسلوفاك أكثر تشابها مما كانوا عليه وهم فى دولة واحدة.

وقد بدت حيرة الرئيس فى تقييمه لحصاد عام من الثورة ومن توليه الرئاسة، فقد سجل بالطبع الجانب المضىء الذى بدا بانسحاب الوحدات الأخيرة من القوات السوفيتية التى غزت البلاد منذ ٢٢ عاما وإجراء أول انتخابات حرة على كل المستويات وحرية التعبير والصحافة وأدوات الإعلام وحقوق التنقل والسفر، ووضع برامج الإصلاح الاقتصادى وبدء معالجة العلاقة بالإقليمين التشيكى والسلوفاكى بشكل واقعى، أما الجانب السلبى فقد بدا له فيما بدا يتكشف عن مدى تعقد

ميراث الماضى، فكل يوم راح يأتى بمشكلة جديدة تتداخل مع غيرها من المشاكل، ويظهر مناخ من عدم الصبر والقلق وخيبة الأمل والشك والحقد وتبادل الاتهامات، «وللغرابة فإن الحرية فتحت الطريق للعديد من الصفات السلبية، وكشفت عن عمق التدهور الأخلاقى لأرواحنا. لقد هزمنا بشكل واضح العدو المحدد المرئى، ولكن الأمر فى اندفاعنا بغضبنا وحاجتنا لأن نجد مذنبا حيا، جعلنا نبحث عن العدو فى كلامنا، بحيث أصبح كل فرد فينا يشعر أن الآخر قد تخلى عنه وخدعه». ويسجل هافيل حالة عدم التأكد وعدم اليقين التى تسود طبيعة النظام الجديد وكيفية بنائه. فـ «مجتمعنا ما زال فى حالة صدمة، وهو وضع كان يمكن تصوره ولكن أحدا لم يتوقع أن تكون الصدمة بهذا العمق.

إن النظام القديم انهار ولكن النظام الجديد لم يبن بعد، وتتصف حياتنا بشكل عام بعدم التأكد الكامن في اللاوعى حول أى نوع من النظام نريده وكيف نبنيه، وعما إذا كنا فى المقام الأول نمتلك وسائل وأدوات بنائه، والمسافة التى تبعدنا عن النظام الجديد وغموضه وعدم التأكد منه، تؤدى بالكثيرين منا لأن ينشدوا بديلا له فى الحلول الجزئية، وأن ينسوا أن نجاحنا

كأفراد أو جماعات أمر ممكن فقط بالنجاح العام لنا كمجتمع».

كان موضع عزاء هافيل خلال تلك المرحلة القلقة من التجربة شعوره «أن الشعب في نهاية الأمر يتمسك به، لا لأنه رجل سياسى يوفر له السلع فى الأسواق، وإنما لأنه يمثل قضية لم يتخل عنها فى السنوات الصعبة، كذلك كان هافيل يستمد الثقة من مكانته فى الخارج والنظر إليه كفيلسوف أخلاقى ذى ثقل حقيقى، غير أن هذا كله لا يخفى حقيقة أنه ليس رجلا سياسيا، وكان يقاوم ما يطالبه به البعض من أن يكون حاكما قويا «ربما كنت أكثر حزما فى مصالح الوطن وبدافع من المسؤولية، ولكن إلى حد ما فقط، ولن أصبح أبدا بونبارتيا»، وفى مرحلة لاحقة قال أنه لا يعتقد انه الشخص الذى يقع ضحية عبادة الشخصية، بل ذهب إلى القول أنه إذا كانت تشيكوسلوفاكيا تصبح حقا دولة ديمقراطية فإن عليها أن تعتمد على أكثر من شخص.

وحين سئل عما إذا كان يستمتع بمنصب الرئيس أجاب «فى الوقت الراهن هذه هى أفضل طريقة أخدم بها بلادى ولكن أعتقد أن الوقت سيحل حين أستطيع أن أخدمها بطريقة تفرض على كمطلب أقل» وكان يقول «أن يوما واحدا فى المنصب هو

أسوأ من مائة يوم فى السجن».

ولكن وسط شئون الحكم وهمومه أين اهتمامات هافيل ككاتب ؟

يبدو أنه إلى جانب خطبه وبياناته التى يكتب معظمها بنفسه، لم يتوقف عن الكتابة «فإلهام الكتابة لم يذهب، ولكنه يكتب مثلما كان يفعل، وهو فى المعارضة «لدرج مكتبه» كما يحاول أن يقرن هذا بمقابلاته مع عدد من الكتاب والمفكرين، فلان لديه عنصرا شرقيا فى تفكيره، حرص على لقاء استضافة الدالاى لاما الزعيم الروحى للتبت حين زار براغ ١٩٩٠ وأجرى معه مشاورات روحية كما التقى بالكاتب جورج كونراد، وحين كان يعد لزيارة مصر أبدى رغبته فى الالتقاء بكاتبها نجيب محفوظ ومن الكتاب الذين قابلهم الكاتب السويسرى دورينمات الذى كتب له رسالة بعد ذلك يقول فيها «إن مهمتك كرئيس لها نفس مهمة ورسالة هافيل كمنشق» وربما كانت هذه هى آخر رسائل دورينمات قبل وفاته.

ومع تقدم خبرته فى الحكم، ازداد إدراك هافيل لمأزقه حيث يقارن نفسه «بالناقد الأجنبى المعروف بأحكامه التى لا ترحم ونظرته الفاحصة والقدرة على اكتشاف أى نغمة زائفة فى رواية

أو قصة، فجأة يطلب منه أن يكتب رواية ويترقب الجميع بفضول بل وبقدر من الفرح الخبيث لكى يروا كيف سينجح فى تحقيق المعايير العالية التى وضعها هو بنفسه من قبل دون أن يعرف أنه فى يوم ما سيكون عليه العمل فى تحقيق وإرضاء هذه المعايير».

ويستذكر هافيل نقده فى الماضى للسياسات العملية وأساليبها «كأداة للتنافس على السلطة لا تهدف إلى خدمة منزهة للمواطنين وفقا لما يمليه ضمير الإنسان، وإنما فقط لكسب رضاهم والبقاء فى الحكم أو الحصول على مزيد منه وكمثقف مستقل فقد كنت أطور باستمرار مفاهيمى عن السياسة كخدمة منزهة لرفاق من البشر وكتطبيق وممارسة عملية للأخلاق، وكسياسة تعتمد على المبادئ العالية والتى أسميتها «السياسة غير السياسية».

وهكذا يتصور هافيل «أن القدر قد ضحك على وكأنه يقول لى أنه بعد أن كنت على هذا القدر من الذكاء على الآن أن أبين لمن كنت أنتقدهم الطريق الصحيح وليس غريبا إذن ألا أحسد على وضعى الحالى، فكل نشاطى السياسى وربما كل السياسات التى تتبعها تشيكوسلوفاكيا تقع تحت فحص

الميكروكسوب الذى بنيته بنفسى».

ورغم من كل هذه الحيرة وهذا المأزق الذى وجد هافيل نفسه فيه بين تاريخه وتكوينه ككاتب وبين ظروف الحكم وواقعه، فهل جعلته هذه الخبرة يندم أو يتراجع عن المواقف التى تبناها والمفاهيم التى صاغها يوما ما عن السياسة وممارستها ومبادئها يقول هافيل «إن العكس هو الصحيح فبعد أعوام من الرئاسة فى بلد تحيط به المشاكل، فإنى لم أجد حاجة إلى تغيير وجهة نظرى، بل أنها تأكدت لدى، فرغم من كل التعاسة السياسية التى أواجهها كل يوم ما زالت عقيدتى العميقة أن جوهر السياسة ليس قذراء فالقذارة إنما يأتى بها فقط الرجال الأشرار، وأعترف أن السياسة هى مجال للنشاط البشرى يقوى فيه الإغراء للتقدم من خلال تصرفات غير عادلة وتفرض مطالب ثقيلة على الإنسان أن يتحملها إذا أراد أن يحتفظ بالمرة أن السياسى لا يستطيع أن يعمل دون أن يكذب او يخادع فهذا الكلام يروج له هؤلاء الذين يريدون أن يبعدوا الناس عن الاهتمام بالقضايا العامة».

فإذا كان الأمر كذلك فما هى متطلبات ومكونات السياسى فى نظر هافيل لكى يعيش ويمارس نشاطه دون أن يضطر إلى

الكذب والخداع ؟ إنه يدرك أنه فى السياسة شأن كل مجالات الحياة قد يكون مستحيلا أن يقول الانسان فى كل وقت كل شىء بشكل مباشر، ولكن هذا لا يعنى ان على المرء أن يكذب فما هو مطلوب هنا هو اللباقة، والإحساس الغريزى والذوق السليم، وفى الوقت الذى يعتبر فيه العلوم السياسية والتاريخ والثقافة أمورا ذات أهمية بالنسبة للسياسى إلا أنها ليست كل شىء وما هو أهم أن يقيم الصلة وأن يحتفظ بحس يقيس به الأمور وبالقدرة على تصور نفسه فى وضع الآخرين ومخاطبتهم والقدرة على التصور والتقييم السريع للمشكلات وظروف الأرواح الإنسانية.

وهكذا فإن خبرة هافيل الكاتب أكدتها خبرته كرئيس فـ «ليس صحيحا أن الناس ذوى المبادئ الرفيعة لا يصلحون للسياسة، إن المبادئ الرفيعة عليها فقط أن تستعين بالصبر والمراعاة والتقدير الصحيح للأمور، وفهم الآخرين، وليس صحيحا أن الشخص المتغطرس والمتكبر والذى يجيد الصياح هو الذى يمكنه أن ينجح فى السياسة، مثل هؤلاء، من الطبيعى أن تجتذبهم السياسة ولكن فى نهاية الأمر، فإن الأدب والخلق الرفيع لهما الغلبة».

عندما اختار فاتسلاف هافيل أن يستقيل من منصبه فى يوليو ١٩٩٢ عقب تصويت برلمان سلوفاكيا لصالح الحكم المستقل للإقليم، ساد شعور بالأسف العام والإحساس بان الساحة الدولية سوف تفتقد رجلا قد لا ينسب له أنه كان رجل دولة استثنائيا، ولكنه مارس الحكم والسياسة بمستوى جديد من التجرد والتأمل نادرا ما حدث وهو اليوم أندر حدوثا. وكما يقول زملاؤه فإن هافيل لم يكن أبدا سياسيا، فقد عبر مباشرة من كونه منشقا إلى الرئاسة متخطيا مرحلة السياسة الحزبية التى يمر بها معظم الساسة وبهذا الشكل فقد تصرف منذ البداية كرجل دولة وهو ما أعطاه ميزة كبيرة وهو لم يكن يعرف ماذا تعنى الأحزاب السياسية ولم يختبر الصراعات الحزبية الداخلية ولم يدرك كم هو صعب أن تكون زعيم حزب، وكنتيجة لذلك، وكرئيس لم يكن فعالا كما يجب أن يكون فى علاقاته واتصالاته مع الأحزاب البرلمانية.

وهكذا فإن عدم ارتياح هافيل للسياسة الحزبية كان من أكثر مظاهر رئاسته، وهو اتجاه شارك فيه أول الرؤساء التشيك توماس مازاريك الذى صاغ عام ١٩٢٠ أسلوب «السياسة غير السياسية». ومثل هذا الأسلوب هو الذى مكن هافيل من أن

يكون فوق المعركة، يمتلك الحرية فى النقد والتعليق على الأحداث كما يراه مناسبا، وهكذا كان دوره هو دور الوسيط Moderator أكثر من كونه قائدا.

وربما تعرض البعض بالنقد لهافيل باعتباره رجل مواعظ وباعتبار حديثه مكررا عن القيم المعنوية غير أن من يدافعون عنه يرون أن مثل هذا النقد يصدر غالبا عن الذين لم يمروا بما مر به من تجربة السجن من أجل الدفاع الشجاع عن القيم المعنوية وهى الخبرة التي عرفها هافيل، ولم تضعف اعتقاده بتلك القيم وتمسكه بها بل زادته اقتناعا بوجوب أن يخضع العمل السياسى للقيم المعنوية. وقد كانت أكثر إسهامات هافيل أهمية، هو أنه لم يتخل عن إصراره على البعد الأخلاقى فى السياسة، وهو مفهوم يعتبر عتيقا اليوم ويرفضه معظم الساسة التشيك أو فى أفضل الأحوال يدعون أن الأخلاق والسياسة شيئان مختلفان ولا يجب أن يمتزجا بل أنهم ينكرون وجود الأخلاق فى حد ذاتها.

ولقد خرج هافيل من تجربته مقتنعا بأن الحياة والفكر والكرامة الإنسانية هى التى أطاحت بالشيوعية وإن الضمير الحقيقى والمسؤولية الحقيقية لا يمكن تفسيرهما فى النهاية إلا

كتعبير عن الافتراض الصامت بأن هناك من يرقبنا من أعلى» وهو كذلك القائل «أن الموت لا ينهى شيئا لأن كل شىء مسطور ويخضع للتقييم فى مكان آخر، مما أسميه «ذاكرة الوجود» هو جزء متكامل من النظام السرى للكون كنظم متناغم ومن الطبيعة والحياة».

ويعتبر هافيل أنه يمتلك خاصية لا تجعله يخضع لجاذبية السلطة والحكم فـ «أننى أتمتع بميزة كبيرة، فمن صفاتى «الرديئة» صفة أفتقدها لحسن الحظ هى التطلع أو حب السلطة او التقيد بها، وعلى هذا، فأنا أكثر تحررا من هؤلاء الذين - وبعد أن يقال كل شىء ويفعل كل شىء - يظلون متعلقين بالسلطة وبموقفهم بشكل أكثر وافتقادى هذه الصفة يسمح لى برفاهية أن أتصرف وأسلك بشكل غير «تكتيكى».

وكما عبر John Keane آخر من أرخوا لحياة هافيل، أن من يقرءوا هذه الحياة سوف يتذوقون لحظات الفرح والسخرية بل والمهزلة وسوء الحظ التى عاشها هافيل، وسوف يرون أن حياته قد أظهرت شجاعته فى وجه البؤس والهزيمة، وسوف يفهمون لماذا هو رئيس ما بعد الحداثة، له معجبون فى أركان الدنيا الأربعة، وفوق كل شىء سوف يكتشفون شيئا يجب على كل

معجبيه ونقاده أن لا ينسوه. أن فاتسلاف هافيل قد عانى من سوء حظ أنه ولد فى القرن العشرين، بل إن رياح تاريخ هذا القرن هى التى فجرت حياته وبشكل يجعل من غير الممكن فهمه دون فهم الأحداث التى أعادت تشكيلًا ليس فقط بلده تشيكوسلوفاكيا ولكن كل أوربا، فلا يمكن فهم حياته دون استدعاء سقوط ملكية هابسبورج، وصعود هتلر، ومحاكمات ستالين ومعسكرات الاعتقال، وكيف أن حياته وكتاباته قد ظللها بعد ذلك إقامة حائط برلين وأحداث عام ١٩٦٨ ثم سقوط الاتحاد السوفيتي والثورات فى أوربا الشرقية وكل الأحداث الرئيسية التى تلت : الانتقال المؤثر نحو البرلمانية الدمقراطية فى وسط أوربا، والحرب فى البلقان، التوسع فى اقتصاديات السوق، والنمو المتسارع لأحدث التجارب المتقدمة فى التكامل الإقليمى فى صورة الاتحاد الأوروبى.

وهكذا كان لهافيل حساسية شديدة تجاه القرن العشرين فقد اعتبر أنه القرن الذى اكتملت له فنون الاستخدام العنيف للقوة تجاه الآخرين، كما كان دائم الحساسية تجاه تيارات القرن ليس فقط لأنه منذ سن مبكرة كانت غرائزه معارضة لاغتصاب السلطة، ولكن لأن من أكبر إنجازاته السياسة أنه

شخصيا قد ساعد على نمو الديموقراطية. فمنذ صباه ولديه كراهية لمظاهر القوة العسكرية، ومن خلال سنوات ستالين، وكصبى، تجرأ على تنظيم مجموعة أدبية مثيرة للإعجاب أسمت نفسها «أبناء الثلاثينيات»، باعتبار أنهم جميعا قد ولدوا عام ١٩٣٦، وسريعا ما شن هافيل حملات هزلية على المسرح الرسمى ومن مسرحياته الأولى مثل : - كل حياتك مازالت تنتظرك - والمذكرة

والتى جلبت له الشهرة العالمية للدفاع عن فكره أن المسرح يجب أن يثير من الأسئلة أكثر مما يقدم من إجابات، وأن عليه أن يجعل الناس يضحون على السلطة التى لا تخضع للمساءلة، وأن المسرح يجب أن يثير ويحرك مشاهديه أكثر من أن يهدئهم أو يعاملهم بتنازل.

وفى موجهاته الأولى مع السلطة منذ بداية الستينيات قدم هافيل نفسه كشاعر، وجعلته هذه الفترة يكتسب سمعة صاحب «اليد النظيفة» وساعدته أن يبرز ككاتب مسرحى بارز ومذيع وناشط جماهيرى من خلال ربيع برج عام ١٩٦٨ وهو الوقت الذى تعرف فيه على الكسندر دوبتشيك، وبدأ يلعب دورا سياسيا عاما، ومن خلال هذه الفترة تحمل هافيل بؤس الحرب

الباردة ونظام برجينف عن «الاشتراكية الحقة»، واستعان على الاحتفاظ بصحته العقلية والمعاناة الشخصية الرهيبة بإعادة تقديم مسرحيات كلاسيكية، ولعب دور رئيسى فى صياغة ما عرف «بميثاق ٧٧» والذى سيظل الوثيقة السياسية للقوى المناهضة للنظام حتى سقوطه وأحداث الثورة المخملية عام١٩٨٩.

والواقع وكما سبق الإشارة أن حياة هافيل تقدم مادة غنية حقا للنظر من جديد فى موضوع السلطة، وقد كتب هافيل العديد من المقالات والمسرحيات حول هذه القضية، وكانت خطبه كرئيس حافلة بالإشارات والتعليقات عن هذه القضية التى كانت لازمة له، بل إن وضعه كرئيس قد غذاها وأصبح أكثر إحساساً بها بعد أن عاش تقريبا كل التغيرات الكبرى للسلطة فى القرن العشرين، فخمسة أسداس حياة هافيل قد عاشها فى ظل نظم معادية للديمقراطية بشكل أو بآخر، كل هذا جعل حياة هافيل وأزمته تقدم دليلا للديمقراطيين، فهو ينطلق من اعتبار أن الشهوة للسلطة هى انحراف متعدد الأشكال، وأن السلطة أينما مورست هى فى حاجة إلى إشراف ورقابة، وأن هذه الرقابة يمكن أن تحدث بشكل أفضل من خلال نظام ديمقراطى يتميز

بعدم العنف والمشاركة فى السلطة وترتيباتها ووضع الحدود على نطاق وإمكانية غطرسة المؤسسة الحكومية، فالديمقراطية عنده فى صورتها المثالية هى نظام من الرقابة الذاتية وتذكير يومى للحكام والمحكومين على السواء وهؤلاء الذين يمارسون السلطة على الآخرين أنهم لا يملكون أن يفعلوا أى شىء يريدونه.

ومن القضايا التى اختلف حولها هافيل مع الشخصيات السياسية الأخرى مثل Vaclav Klaus، الذى سوف يخلفه فى الرئاسة، قضية تجديد المجتمع بعد الفترة الشيوعية. فقد اعتبر هافيل أن الشيوعية قد دمرت عمدا وصادرت المجتمع المدنى، والذى حدده باعتباره شبكات من النوادى، والكنائس، والحكومات المحلية التى تقع خارج نطاق الدولة، وكان بناء الديمقراطية يتطلب تشجيع إحياء هذه الشبكات، ورأى ذلك باعتباره «الأساس الوحيد والحقيقى للنظام الديمقراطى» واعتقد أن البرلمانية الديمقراطية تستطيع فقط أن تعمل إذ ما كان لها جذورها فى مجتمع مدنى نشط ومستقل.

قبل تركه للسلطة بعدة شهور، فى أكتوبر ٢٠٠٢، تحدث فاسلاف هافيل أمام تجمع ثقافى فى نيويورك متأملا فى تجربته

فى الحكم والسياسة، وقد بدأه باستذكار لقاء سابق مع نفس التجمع حيث تولى السلطة عام ١٩٩٠ وكريس منتخب لتشيكوسلوفاكيا، واعتبر أن هذا اللقاء الأخير يقوده بشكل طبيعي إلى التساؤل عما إذا كان قد تغير خلال السنوات الثلاث عشر التى قضاها فى السلطة وما صنعته به «تلك الرحلة الغامضة»، وعن طبيعية التحولات التى أحدثتها فيه هذه المرحلة الغامضة. وقد أجاب هافيل عن هذا التساؤل بأنه قد اكتشف شيئا مذهلا، فبينما كان من المفترض أن توفر له هذه التجربة قدراأكبر من الثقة بالذات والطمأنينة والصقل، فإن ما حدث كان العكس تماما، حيث قد أصبح من خلال هذه الفترة أقل ثقة وأكثر تواضعا، وطلب من مستمعيه أن يصدقوه أنه كان يعانى كل يوم قدرا أكبر من رهبة الوقوف على خشبة ذلك المسرح، والمزيد من الخوف من أنه غير مؤهل لعمله وأنه سيؤديه بشكل سيئ والصعوبة المتزايدة التي يجدها فى تحرير خطبه والقلق من أنه ربما يكرر الكلام نفسه مرة بعد الأخرى، وخشيته من أنه دون ما يتوقع منه وأكثر افتقارا لمؤهلات المنصب وأنه رغم حسن نواياه فسوف يرتكب أخطاء أكبر فأكبر ومن ثمة فإنه ليس له الحق في تولى منصبه. وقد انسحب هذا الشعور على

لقاءاته مع الشخصيات المهمة أو الظهور على التليفزيون وجعله هذا يتحاشى ما قد يعتبره الآخرون فرصة ثمينة وباختصار، بدأ يشعر، فى منظار نفسه، أنه «مشبوها» وكلما تكاثر أعداؤه كلما وجد نفسه يتفق معهم فى سره وهكذا أصبح عدوا لذاته.

ويتساءل هافيل عن تفسير هذا التحول الأبعد الذى حدث فى شخصيته، ويجيب، على الأقل فى الوقت الراهن، أن أحد التفسيرات لذلك أنه مع تقدمه فى السن ونضجه واكتساب المزيد من الخبرة والتعقل تأهل بالتدريج إلى إدراك كامل لمدى المسئوليات العجيبة التنوع التى يتحملها نتيجة لمنصبه كرئيس، يضاف إلى ذلك اقتراب الوقت الذى سوف يطرحه الآخرون ويطرحه هو على نفسه عن مثله وأهدافه وما الذى يريد تحقيقه وكيف يريد للعالم أن يتغير، بل ما الذى حققه بالفعل، وما الذى يريد أن يذكر به وما الذى يريده للعالم الذى سيتركه وراءه، ويقول هافيل أنه فى مواجهة هذه التساؤلات يشعر بالقلق الروحى والفكرى نفسه الذى دفعه فى الماضى إلى الوقوف فى وجه النظام الشمولى وإلى دخول السجن، وهو ما يقوده إلى الشك العميق فى قيمة عمله أو عمل من وقف إلى جانبهم أو الذين مكنهم من أن يكونوا مؤثرين.

غير أن هافيل قد نبه مستمعيه أن لا يستخلصوا من هذا أنه خسر معركته وأن كل ما جرى كان عبثا، على العكس «فإن عالمنا وإنسانيتنا وحضارتنا ربما تكون الآن على أهم مفترق للطرق فى التاريخ ولديها فرصة لم تتوفر لمثيلاتها فى الماضى لكى تتخذ خيار العقل والسلام والعدالة، وليس الطريق المؤدى إلى الدمار، غير أن اختيار هذا الطريق يتطلب الكثير من الجهد وإنكار الذات والصبر والمعرفة والنظرة الشمولية الهادئة والاستماع بعناية إلى تحذيرات الشعراء وأخذها ببالغ الجد وبأكثر مما تأخذ أصوات أصحاب البنوك والمضاربين بالأسهم غير أننا فى نفس الوقت لا يجب أن نتوقع أن العالم حين يديره الشعراء سوف يتحول فجأة إلى قصيدة «ويحرص هافيل على أن يوضح أنه إذا كان قد ارتابته الشكوك حول أدائه لمهام منصبه وتحفظاته على الدور الذى أعطى له وعما إذا كان قد يستحقه، وبغض النظر عن قلة رضائه عما بذله، إلا أنه يدرك أن توليه منصب الرئاسة كان هبة رائعة من القدر حيث أتاحت له فرصة الإسهام فى أحداث تاريخية عظيمة غيرت العالم، ومثل هذه التجربة كانت هبة تاريخية تهون أمامها كل الفخاخ التى انطوت عليها مثل هذه الفرصة.

وفى النهاية يختصر هافيل تأملاته بتلخيص قناعاته وملاحظاته القديمة والتى أكدتها له عمله فى السياسة وهى :

(١) أنه إذا كان للإنسانية أن تستمر وتتجنب الكوارث فإن على النظام العالمى أن يضمن الاحترام المخلص والمتبادل بين مختلف الميادين الحضارية والثقافية والقومية، وأن يبذل كل جهده للسعى للتوصل إلى القيم والأسس الأخلاقية المشتركة وأن يجعلها أساسا للتعايش فى عالم اليوم المترابط بشكل وثيق.

(٢) أنه لابد من مواجهة الشر فى مهده واستعمال القوة ضده إذا لم يكن هناك سبيل آخر وإذا كان لابد من استعمال الأسلحة الحديثة بالغة التقدم فليكن ذلك بشكل لا يلحق الأذى بالسكان المدنيين.

(٣) أن القضايا السياسية الأهم فى عالمنا اليوم هى النظام الاخلاقى وجذوره، وحقوق الإنسان ومنابعها، والضمير الإنسانى ونظرته العميقة التى لا يمكن استبدالها بالكلام المعسول.

وفى ٢ من فبراير ٢٠٠٣ وقبل اعتزاله بأيام وجه هافيل خطابا إلى الأمة التشيكية استعاد فيه عام ١٩٨٩ والتحولات

العميقة التى حلت ببلاده وأتت به إلى السلطة، وقد أتت هذه التحولات بشكل مفاجئ وبصورة لم تتح له الوقت أن يرى بشكل سليم ما إذا كان يمتلك أم لا القدرة على مهمته الجديدة، وكان مخلصا فى تصوره أنه سوف يتولاها لعدة شهور حتى يحين موعد أول انتخابات، غير أن الأمر تحول إلى بقائه لمدة ثلاث عشر عاما.

ويستخلص هافيل معانى هذا التحول الذى حدث فى بلاده ومجتمعه، وربما غيرها، بأنه قد يكون من السهل تدمير نسيج المؤسسات والعلاقات المدنية والتى تطورت عبر عقود حيث وضع كل شىء تحت سيطرة الدولة وأخضعت حياة البلاد كلها إلى كيان سياسى واحد، إلا أنه كان من التحدى البالغ إعادة ترتيب كل شىء مرة أخرى وبشكل يجعل المرء يفتخر بالصبر الذى تحلى به المجتمع للتوافق مع هذه التحديات.

وفى تقييم ما أنجزه هافيل لبلاده ثمة تداخل بين ما حققه فى الخارج والداخل، فما حققه هافيل لبلاده فى الخارج ولاسمها لم يكن ممكنا، إن لم يكن قد لعب دورا رئيسيا فى عملية التحول التى جرت فى الداخل وحولها إلى بلد مستقر ومتسامح، يراعى فيها حقوق الإنسان التى تشكل جزءً من الهيكل السياسى

والأمنى الغربى، وكلا من هذه القيم كانت تتطلب المحاربة من أجلها فى الداخل والخارج.

ومن الأحداث التى ارتبطت بأخريات أيامه كرئيس، موقفه من تأييد الغزو الأمريكى للعراق، وهو الموقف الذى جعل عددا من المعلقين، وخاصة الأمريكيين، يطلبون منه تفسير موقفه فكيف يمكن لمثله من قاد ثورة سلمية ضد الطغيان يؤيد كذلك حربا إجهاضية ؟ وقد عقب هافيل بأنه لم يكن أبدا مسالما Paci-fist وأنه دائما ما اعتقد أنه فى بعض الحالات أن العنف له ما يبرره فى النضال ضد الشر وأن صدام كان شريرا ويجب وقفه. غير أن موقف هافيل هذا يستند على خبرته الشخصية حول أخطار الحكم الشمولى سواء لمن يعيشون فى ظله أو للعالم. بالإضافة لهذا فإن هافيل قال أيضا أن الأمريكيين يجب أن يتصرفوا بمفردهم وأنه يجب إشراك الناتو، كذلك قال إنه إذا نتج عن الأسلحة الحديثة خسائر مدنية فإن هذا يعنى «أن البلايين التى أنفقت على هذه الأسلحة قد ذهبت سدى» وثمة خبرة أخرى أثارها هافيل فى تفسيره لموقفه وهى خبرة الاحتلال السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، وفى مثل هذا الوقت فإن البلد كلها قد كررت عبارة «السيادة» وأدانت الادعاء الرسمى

السوفيتى أن الغزو كان «مساعدة أخوية» تمت باسم قيم أعلى من سيادة الدولة وكانت باسم الاشتراكية والتى ادعوا أنها هددت، غير أننا، فيما يقول هافيل، كنا نعلم جميعا أن الأمر يتعلق بالهيمنة السوفيتية والاستغلال الاقتصادى ولا شئ أكثر من ذلك. ويضيف هافيل أن هذه الخبرة الثانية تحثنى على أن أكون حريصا جدا، وأن أقيس وبميزان حساس جدا، ما إذا كان الأمر هنا يتعلق حقا بمساعده شعب يواجه نظاما إجراميا وحماية البشرية ضد أسلحته، أو أنها نسخة أخرى، وأكثر تعقيدا، من النسخه السوفيتية عام ١٩٦٨ حول «المساعدة الأخوية».

فى الأسبوع الأخير من فبراير ٢٠٠٣ الذى اعتزل فيه هافيل، ناقش البرلمان التشيكى اقتراحا بقانون يسمح للرئيس السابق بمعاش قدره ٢٠٠٠ دولار، وحيث كان راتبه الشهرى ٦٠٠٠ دولار، وأن يسمح له كذلك بسيارة خاصة وحارس لمدة خمس سنوات. ولكن البرلمان اسقط هذا الاقتراح.

مصادر :

- Jan Vladislav : vaclav Havel or Living in Truth, London : Faber & Faber, 1986
- John Keane Vaclav Havel, a political Tragedy in Six Acts, Basic Books, 2000
- Vaclav Havel Open Letters Selected Writings 1965 - 1990
- Paul Wilson, Wonderful Life, The New York Review of books, April 10, 2003

هنرى كيسنجر
ومصادره الفكرية

فى عـام ١٩٧٦ أصدرت كـتابًا صـغـيّرًا تحت عنوان «هنرى كيسنجر : حياتـه. وفكره «كان هنرى كيسنجر عندئذ فى قمة توهجه السياسى والدبلوماسى.

ولم يكن فـقط فى مـركـز الأحـداث الدولية الكبـرى، بل كـان صـانعها ومنظر أسسـها الفكرية والفلسفية. فى هذا الحين كان بزيارته للصين عام ١٩٧١ قد فتح الطريق لمصالحة تاريخية بين بلاده وبين أكبـر كـتلة بشـرية فى العـالم، وأنهى القطيـعـة بل والخـصـومـة التى تـطورت بينهـمـا منذ مـجىء الحكم الشـيوعى للصين عام ١٩٤٩. ولم يكن هذا الحدث مقصودا لذاته إنما لكى يصيغ به المثلث : الولايات المتحدة، الاتحـاد السوفيتى، والصين، ولكى يستـخدمه فى فتـح جبهة دبلومـاسـية أعرض مع الاتحـاد السـوفيتى ومبتدئا عملية تنقل العلاقات الأمريكية السـوفيتـية من المواجـهة إلى التفـاوض، وهـى العملية التى تبلور حولها مفـهوم الوفـاق وظلت تتطور بإنجازاتها وتوتراتها وتناقضـاتـها عبـر ٤ مؤتمـرات قمة بـين قادة القوتـين ما بين أعوام ٧٢ - ١٩٧٤ وكان

فى عام ١٩٧٣، وعبر مفاوضات شاقة مضنية، قد توصل إلى اتفاقية السلام مع فيتنام الشمالية منهيا الحرب - أو المستنقع - التى تورطت فيه بلاده منذ الستينيات، ونالت ليس فقط من صورتها الدولية، بل ومن النسيج الاجتماعي والسياسى الداخلى فيها.

غير أن هذه التطورات والممارسات الدولية لم تكن هى وحدها التى جذبتنى للتصرف والتعريف بشخصية صاحبها ومكوناتها، بل أهم من ذلك كان الدور المؤثر، بل وربما الموجه الذى كان يلعبه فى شئون الشرق الأوسط فى الفترة التى أعقبت مباشرة حرب ١٩٧٣ فى هذه الفترة التقط هنرى كيسنجر وطبق ما كان يدعو إليه فى كتاباته الأكاديمية من أن يمسك رجل الدولة باللحظة التاريخية لكى يوجهها إلى الوجهة التى يريدها. وكانت اللحظة التاريخية التى تبدت له هو هذا «التوازن» الذى سمحت به حربى أكتوبر بين الإسرائيليين والعرب والذى رآه يسمح بتحريك عملية السلام بينهما والتوازن balance of pol-sey، كما سنرى، هو المفهوم الذى تربى عليه هنرى كيسنجر والذى افتتنى من أجله بمرحلة ما بعد الحرب النابوليونية وبالسلام الذى أقامته اتفاقيات «ڤينا» الذى صنعه رجال دولة

من أمثال مترنيخ النمساوى، وكاسترك البريطانى، والذين سيظلان النموذج الذى سيقيس عظمة رجل الدولة بقدر اقترابه منهما.

كان انخراط كيسنجر فى توجيه عملية السلام فى الشرق الأوسط هى التى دفعتنى لأن أسهم بالتعريف بهذا الرجل وأن اقدمه لبنى وطنى وربما للشخصيات التى تتعامل وتتفاوض معه. ولم يكن يعنينى الحكم على ممارسات الدبلوماسية أو نواياه أو أهدافه، وإنما كان قصدى هو أن أتعرف وأن أقدم الأصول الفكرية والتاريخية والفلسفية التى صاغت فكره، وقدمت بالتالى الأساس التى تصدر عنه وتوجه ممارساته الدبلوماسية وقد يختلف بعض مؤرخيه حول مدى تطابق ما فكر فيه وتأمل وكتب من خلال مرحلة الأكاديمية وبين ممارساته فى السلطة، غير أن الأمر الثابت أن خلفياته الفرية والفلسفية تمثل الرصيد الذى غذى أفكاره وهو يعمل وينفذ.

ومنذ صدور هذا الكتاب، ظل جانبا أساسيًا من اهتمامى ومتابعتى لكيسنجر منصبا أيضا على مصادره الفكرية والفلسفية وبشكل أكثر تحديدا على ماذا يعنى التاريخ بالنسبة له، وبماذا أسهمت نماذجه التاريخية من أمثال: كانت،

وسبنجلر، وتوينبى فى صياغة تفكيره ونظرته للتاريخ، كذلك انصب اهتمامى على رؤية كيسنجر لرجل الدولة Staraman ومكوناته وعلاقته بمجتمعه وبتيارات عصره.

من هنا كانت هذه الإضافة الجديدة التى نتناول فيها نظرات كيسنجر فى معنى التاريخ، ورؤيته وتصوره لما يجب أن يكون عليه رجل الدولة. كذلك أتاحت الفترة الزمنية التى قضاها كيسنجر فى السلطة والتى سمحت له بتطبيق نظرياته السياسية، أن نتتبع ونختبر مدى مطابقة ما فكر فيه كيسنجر وتأمل وكتب خلال حياته الأكاديمية مع ممارساته العملية الدبلوماسية.

* * *

ورغم أن هذا الفصل يعنى أساسا بالتعرف على المصادر الفلسفية والتاريخية لتفكير هنرى كيسنجر، فلا بأس من أن نتساءل خاصة وقد توفر هذا البعد الزمنى منذ تركه لمناصبه الرسمية، والذى يسمح برؤية سياساته وقد اختبرت وحققته من نتائج فى القضايا التى نشطت فيها. كما سنرى، وفى كل القضايا الدولية الكبيرة التى كان يتعرض لها كيسنجر كان ينبه من يتفاوض معهم أن يفكروا فيما سيكون حكم التاريخ عليهم

فى المستقبل. والآن يحق لنا أن نتساءل كيف سينظر التاريخ إلى هنرى كيسنجر. يعتبر معظم شراحه أن ذلك سيتوقف على المقياس الذى سيقاس به ما خلفه كيسنجر وما أنجزه. ماذا استخدمنا فى هذا مقياس دوام برامجه واستمرارها بعده، فسوف نجد أن هذا المقياس لن ينصفه وسوف تبدو أعماله غير ناجحة تماما، فبهذا المقياس سنرى أن كثيرا مما حققه كيسنجر من خلال عهده قد تراجع من بعده، فالسلام الذى حققه باتفاقات فى فيتنام عام ١٩٧٣ قد انهار عام ١٩٧٥، وعلاقات الوفاق ومفهومه التى شرع فى بنائها مع الاتحاد السوفيتى أنكرته الإدارة التى كان كيسنجر مازال وزير خارجيتها وهى إدارة فورد. وربما كان انفتاحه على الصين هو ما استمر، ولكن ذلك لم يتحقق ولم يتأكد إلا بفعل إدارة لاحقة. ونفس هذا يمكن أن يقال عن الدبلوماسية فى الشرق الأوسط، فرغم ما بدت فى وقته كسياسة جريئة وخلاقة، إلا أنها على المدى البعيد لم تضع سلاما شاملا فى المنطقة خلاصة قول من يقيسون كيسنجر بمقياس دوام السياسات واستمرارها أنه من الصعب أن نجد سياسة واحدة شرع فيها كيسنجر وقد استمرت لحقبة من الزمن.

غير أننا نجد أن فريقا آخر يشكك فى هذا المقياس وفى مدى اعتباره مقياسا صالحا للحكم على ما حققته ساسة ما. فى هذا يعتبر هذا الفريق أن أفضل الدروس التى قدمها كيسنجر هو التصميم والإصرار فى صناعة وإدارة وتنفيذ السياسة الخارجية، ماذا كانت قوة كبرى كالولايات المتحدة لها مصالح دائمة فى بقية العالم كان من الصعب تصور أن سياسة واحدة سوف تحقق نجاحا وفي كل الأوقات، وفى هذا اعتقد كيسنجر دائما أن مقياس نجاح الدبلوماسى هو قدرته على أن يتكيف مع البيئات المتغيرة.

كذلك وعد كيسنجر أن الولايات المتحدة يجب أن تتبع خطة واستراتيجية، وأن عليها أن أن تقيم أبنية وأن على السياسيين أن يفكروا بشكل استراتيجى، كما ادعى كيسنجر أنه وهو فى السلطة كان يتصرف ويعمل وفقا لمفهوم أو تصور يختلف عما سبق للسياسة الأمريكية أن تبنته فى علاقاتها الخارجية، وأنه رأى وأدرك الارتباطات بين القضايا المختلفة التى لم يدركها الآخرين.

فى هذا الذى ادعاه كيسنجر لنفسه، فإن نقاده يعتبرون أنه فى التطبيق العملى لم يكن ثوريا كما وعد، فقد كان كيسنجر

غالبا ما يستجيب للأحداث أكثر مما يصيغها. وكان افتقاره للاهتمام بالتطورات عبر القوميات، وفى الاقتصاد، وفى الأخلاقيات، وحقوق الإنسان، وفى مصير الأمم الفقيرة، كل هذا عرضه للاتهامات بأنه لم يقدم إلا صيغا بالية للقرن التاسع عشر.

هذه المآخذ الموضوعية حول دبلوماسية كيسنجر ارتبطت أيضا بمآخذ حول أسلوبه فى ممارسة الدبلوماسية ولكن الأسلوب الذى رآه نقاده يتسم بقدر كبير من الطابع الشخصى وبالرغبة فى دعم شهرته ومكانته الشخصية الأمر الذى عقد كثيرا من القضايا التى كان يعالجها. وفى بعض الأحيان كان يتصرف وكأنه وحده الذى يمتلك الحكمة والمعرفة وقنوات الاتصال مع الرئيس، ومعرفة القادة العارفين، والتصور الذهنى المطلوب لتصميم سياسة خارجية فعالة.

ولعل أكثر ما تعرض له ميراث كيسنجر فى أدائه الدبلوماسى هو ميله للسرية بل وللخداع، الأمر الذى «فسر أنه فى جانب منه كان انعكاسا لإحساسه الكامن بعدم الأمن والعصبية، وإن كان فى جانب منه كان مرتبطا بالسياسات التى تتبعها. فقد كان يعتقد أن الدبلوماسية التى تقوم على أساس

من المثالية الأخلاقية أو القانون الدولى من السهل ممارستها بشكل علنى، أما الأسلوب الواقعى بما يتضمنه من مساومات غامضة ومؤشرات القوة لا يلائمه إلا السرية والخداع ذلك أنها إذا ما مورست بشكل علنى فسوف تثير عدم الرضا من جانب الرأى العام وتحبط فى بداياتها وقبل أن تحقق أهدافها.

كذلك كان أسلوب كيسنجر فى التركيز على السرية بتجاوب إلى حد كبير مع شخصية رئيسه ريتشارد نيكسون، ففى ممارساته تلك كان كيسنجر يعكس، ويدعم، الجوانب المظلمة فى رئيسه. فكلاهما كان يستسيغ ويستمتع بالمفاجآت الدرامية، مثل الإعلان عن الانفتاح على الصين، والشغف بالتحكم بالأحداث واكتساب المجد أكثر من المشاركة، المسئولية، وعدم الثقة بالآخرين وخاصة البيروقراطيين، وعلى هذا كانا يفضلان التآمر ويخافان بشكل مبالغ فيه من تسرب نواياهم واتجاهاتهم.

أما أكثر الثغرات فى شخصية كيسنجر وسياساته فكان فى إهماله للعنصر الأخلاقى فى السياسة وتركيزه على القوة وتوازناتها، فعندما كشفت أعمالا مثل ضرب ثم غزو كمبوديا، وقصف هانوى فى ليلة عيد الميلاد، وتقويض استقرار شيلى والإطاحة باللندى، وغير ذلك من الأعمال، كشفت عن قسوة

استفزت الأمريكيين الذين يعتقدون فى أنه الأساس التاريخى لسياستهم الخارجية : احترام حقوق الإنسان، القانون الدولى، والديموقراطية وقيم مثالية أخرى، وهكذا كانت النكسات التى واجهها كيسنجر كرجل دولة، والخصومات الشخصية التى ولدها، قد نبعت من افتقار حساباته الجيويولتيكية للجانب الأخلاقى، الأمر الذى جعل بعض نقاده يعتبرون أن ميراثه قد تحول إلى شيئ لامع أكثر منه إلى شيئ له أساس متين.

غير أنه إذا كان هذا هو رأى نقاده فيه وخاصة فى جانبه الأخلاقى، فإنه كان له رأى آخر يدافع به عن نفسه وإساليبه، فقد رأى أن التركيز على الواقعية والمصلحة القومية التى بدت قاسية فى التنفيذ، لم يكن رفضا للقيم المعنوية. وإنما كانت أفضل الطرق للبحث عن نظام عالمى مستقر وهذا الهدف هو الغاية النهائية للضرورة الأخلاقية فى العصر النووى. وقد حاول كيسنجر أن يشرح فهمه للعلاقة بين العامل الأخلاقى من خلال اجتماع للحاصلين على جائزة نوبل فى باريس عام ١٩٨٨ ، بعد أن تفرض للهجوم من خلال جلسة مغلقة لسياساته التى تعتمد على القوة، وأسلوبه غير الأخلاقى، وحين اتهمه أحد الحاصلين على جائزة نوبل بالذبح الجماعى. وقد بدأ كيسنجر حديثه

باستعادة طفولته، وعندئذ ساد السكون الحجرة، ثم ذكر الحاضرين بموت ١٢ من أقاربه فى الهولوكوست فهو يعلم جيدا عن طبيعة المذابح الجماعية واستطرد أنه من السهل على من يدافعون عن حقوق الإنسان والسلام أن ينشدوا الكمال فى هذا العالم، أما صانع السياسة الذى عليه أن يتعامل مع الواقع، يتعلم أن ينشد أفضل ما يمكن أن يصل إليه أكثر من أفضل ما يمكن تخيله، وسوف يكون رائعا بطبيعة الحال إزالة دور القوة العسكرية من شئون العالم، غير أن العالم «كما تعلمت فى طفولتى»، بعيد عن الكمال، وأن هؤلاء الذين يقفون على جانب الطريق - لا يمكنهم تحمل المثالية المطلقة، ويجب أن يكون لديهم الشجاعة أن يتعاملوا مع الأوضاع الغامضة ومع الحاجة للتكيف وأن يدركوا أن الأهداف العظيمة يمكن فقط أن تحقق من خلال خطوات ناقصة، ذلك أن أحداً لا يمتلك احتكار الفضيلة.

ومثلما كان افتقار سياسات وممارسات هنرى كيسنجر الدبلوماسية للجانب الأخلاقى من أكثر ما تعرض له من نقد، كذلك كان تركيزه وفهمه للواقعية فى السياسة : Realpoltick، الذى وضعه ضمن تيار يضم هانز مورجانتو، وجورج كينان،

ومن أكثر النقاط التى هوجم فيها، بل واعتبر أن عدم اهتمامه بالاعتبارات الأخلاقية كان نتيجة لأخذ المتطرف لهذا المذهب، الأمر الذى يتطلب، فى سياق التقييم الشامل لتراث كيسنجر الفكرى والدبلوماسى، التوقف عند هذا المذهب فى إطاره العام، وفى أصوله فى السياسة الخارجية الأمريكية، وكذلك للمكونات المميزة له عند كيسنجر.

ويستند مذهب الواقعية فى السياسة تقليديا على النظرة المتشائمة للطبيعة الإنسانية، واعتبار أن القوة لها المكانة العليا فى العلاقات الدولية. فالأمم لها مصالحها الخاصة والمقدر لها أن تتصادم من وقت لآخر، وكذلك فإن السياسى الواثق هو الذى يركز على هذه المصالح القومية أكثر من تركيزه على النظر المثالى حول العدالة أو الأخلاقيات، ويدرك أن هذه المصالح لا يحميها إلا المصداقية الفكرية. وفى احتقار الأيديلوجيات، يميل السياسى الواقعى إلي أن يعتبر الاستقرار هو هدف رجل الدولة، ويتفق بشكل أفضل من خلال تحالفات لا تستند على العواطف.

والنموذج الكلاسيكى النظرة الواقعية فى السياسة نجده عند Thucydides : فى كتابه ان الحرب البولونوزية والذى نقرأ فيه

أن ما جعل الحرب حتمية هو نمو قوة أثينا وما سببه هذا من خوف فى اسبرطه والمدن التى اعتمدت على العدل والإخلاص والاتفاقيات خسرت أمام هؤلاء الذين اتبعوا سياسة القوة. أما فى صورتها الحديثة فإن الواقعية، التقليدية تتحدد بشكل أفضل عند عالم الاجتماع الألمانى ماكس وبر Max Weber، واثنان من الأساتذة الأمريكيين من أصل ألمانى هما : -Reinhold Niebuh vi، وهانز مورجانتو، وقد أدركوا جميعا أولوية القوة، والدور المحدود للأخلاق فى السياسة الخارجية، والتشاؤم حول الطبيعة البشرية.

وفى النطاق السياسى الأمريكى فإن النقاش بين المثالية والواقعية فى السياسة الخارجية يرجعان إلى جيفرسون وهاملتون، وقد رأى جيفرسون دور أمريكا العالمى فى ضوء مثالى «لقد اقسمت أمام الله على العداوة الأبدية لأى شكل من أشكال العبودية للفكر الإنسانى» أما هاملتون فكان يميل إلى الواقعية فى السياسة : «إن الأمان من الخطر الخارجى هو أقوى موجه للسلوك القومى». ولفترة ما انتصرت مثالية جيفرسون وأضيف إليها انعزالية تقاوم أى تورط فى التحالفات الخارجية كما عبرت عنها خطبة وداع جورج واشنطون. وقد

واصل ودرو ويلسون الدعوة إلى المثالية حين أعلن أن هدف الحرب العالمية الأولى هو جعل العالم «آمنا ديموقراطية»، وتصور أن المصالح الوطنية يمكن الارتفاع عليها من خلال آليات ومبادئ عصبة الأمم الأخلاقية والقانونية، وكان يقول «إن البعض يعتبرونى مثاليا، حسنا، إن هذه هى الطريقة الوحيدة فى العالم».

أما هنرى كيسنجر فقد رفض هذا الاتجاه المثالى الجامح فى السياسة الأمريكية، فقد ذكر الرئيس السورى حافظ الأسد مرة أن فرانكلين روزفلت لم يفهم فى نهاية الحرب الثانية أهمية اكتساب أفضل وضع عسكرى تجاه الجيش الأحمر فى أوربا، واستيعاب روزفلت الواقع الاستراتيجى لم يكن جيدا مثل استيعابه للقيم المثالية الأمريكية. وقد اعتبر كيسنجر أن الكراهية الأمريكية المبالغ فيها للمعاهدات السرية وسياسة القوة وكل ما يميز السياسة الواقعية ودبلوماسية توازن القوى إنما ينبع من بساطة وسذاجة معظم الأمريكيين. كما أعتبر أن الميل الأمريكى الغريزى نحو الاستقامة والأساليب المباشرة، والسياسة العلنية وما يصاحبها من ضجيج، وعدم الثقة بالأساليب الأوروبية، كل هذا أدى إلى فقدان الصبر مع مناهج

الدبلوماسية الأوروبية، وميلها إلى الحلول الوسط الغامضة.

أما ما كان يميز واقعية كيسنجر، فهو تركيزه الخاص على دور القوة العسكرية، فقد كتب «عبر التاريخ كان نفوذ الأمم يرتبط تقريبا بقوتها العسكرية..» لقد طبق كيسنجر هذا المفهوم في تفضيله لاستعراضات القوة العسكرية واستخداماتها من خلال القصف بالقنابل، والغزو، وعبور حاملات الطائرات إلى المناطق المضطربة، والإنذارات النووية. كذلك كان من مكونات واقعية كيسنجر تأكيده على عنصر المصداقية : Cyediblity، والدور الذى تلعبه فى تعزيز نفوذ الأمة وقوتها. والتركيز على المصداقية هو الذى يفسر، فاذا لا تعتبر الواقعية فى السياسة الخارجية مشابهة للبرجماتية، ففى التعامل مع فيتنام كان السياسى البرجماتى سيستخلص بسرعة أن الحرب لا تستحق الجهد الذى يبذل فيها، وأن ثمنها يفوق أى مزايا ممكنة، أما السياسى الواقعى فإنه يؤكد أن أمريكا لا تستطيع أن تتخلى عن التزاماتها وإلا سوف تقوض نفوذها فى اماكن أخرى من العالم. جانب آخر من واقعية كيسنجر هو افتقاره للاهتمام بتأييد القوى الديموقراطية وحركات حقوق الإنسان والدولة ذات الحكم السلطوى : Authoritarian، فقد كان يشعر بالراحة فى

التعامل مع القادة الأقوياء مثل: برجنيف، وشوين لاى وشاه ايران والأسد والسادات أكثر من الديموقراطيات التى يسودها الفوضى فى أوربا وإسرائيل. كذلك نجده من خلال وجوده فى الحكم وبعده يعارض حملات دعاة حقوق الإنسان الذين يريدون أن تدفع الولايات المتحدة الاصلاحات الداخلية فى الاتحاد السوفيتى عندئذ، وفى الصين وباكستان وإيران خلال حكم الشاه، وكان يرد على هذه الجماعات بقوله «ماهو شأننا فى كيف يحكمون نفسهم»، وكان يجادلهم أن الترتيبات التى يقيمها مع الاتحاد السوفيتى والصين والتى من شأنها أن تجعلهم جزءً من النظام الدولى لا ثائرين عليه، ونفتح مجتمعاتهم، هى فى نهاية الأمر التى ستخدم قضايا حقوق الإنسان فيها، وليس الحملات العدائية لهذه الجماعات. وقد بدأ هذا الاتجاه بشكل أوضح فى رفض كيسنجر أن ينضم إلى موجة نقد الصين بعد أحداث الميدان السماوى عام ١٩٨٩..

بعد تركه للسلطة عام ١٩٧٧، عاد هنرى كيسنجر إلى مكتبته لا ليكتب مثلما فعل خلال حياته الأكاديمية عن فلاسفة للتاريخ مثل: كانط وشبنجلر وتوينبى، أو عن شخصيات تاريخية فى الحكم والدبلوماسية مثل مترنيخ وبسمارك وكاسترله، أو لكى

يبحث فى فترة من الدبلوماسية الأوروبية رأى أنها وفرت لأوربا قرابة قرن من السلام مثلما درس نظام المؤتمرات الذى سوى الحروب النابليونية، ولكنه جلس هذه المرة لكي يسجل تاريخًا معاصراً عايشه وشارك فى صنعه من خلال السنوات التى قضاها مع إدارة نيكسون وفورد وقضى جانبا منها : ١٩٦٩ - ١٩٧٣ كمستشار للأمن القومى لنيكسون ثم وزيرا للخارجية من ١٩٧٣ - ١٩٧٧. فحول الفترة الأولى أصدر كيسنجر عام عمله الضخم white House years ١٤٧٦ صفحة، وفيه سجل مذكرات عن أحداث حاسمة فى حياته وحياة الولايات المتحدة والعالم : لقاؤه الأول مع ريتشارد نيكسون، رحلته السرية إلى الصين، محادثا فى الحد من الأسلحة الإستراتيجية، الحرب الهندية الباكستانية عام ١٩٧١، مؤتمرات القمة التاريخية فى موسكو وبكين، والجدل الواسع الذى نشأ حول السياسة الأمريكية فى الهند الصينية، ومحادثاته السرية مع الفيناميين الشماليين، وزيارته وما تلاها من قصف هانوى فى ليلة عيد الميلاد. كما يقدم نظراته فى نزاع الشرق الأوسط، وبدايات التحول الاستراتيجى وابتعاد مصر عن الاتحاد السوفيتى، وفى قضايا الدفاع والاستراتيجية والعلاقات مع أوربا واليابان.

وبتحليل رؤيته لهذه الأحداث وعلاقته مع ريتشارد نيكسون، والصور التى رسمها وحلل فيها لشخصيات زعماء وقادة التقى معهم : ديجول، برجنيف، شواين لاى، وماوتس تونج، وشاه إيران وغيرهم ثم آرائه فى تناول الأزمات وفن الدبلوماسية.

أما مرحلته الثانية وهو فى السلطة وكوزيرللخارجية فقد سجل مذكراته عنها فى عمله الثانى الذى أصدره عن : Years of Turmoil، فى ١٢٣٤ صفحة، وعنوان الكتاب يشير بموضوعاته التى تعرضت للسنوات المليئة بالغليان الذى ساد إدارة نيكسون الثانية منذ أن بدأت فى يناير ١٩٧٣ وسيطر عليها حدثان كبيران : فضيحة ووترجيت، ثم حرب أكتوبر فى الشرق الأوسط، ثم وقف إطلاق النار فى فيتنام وجهود تسوية الحرب فى كمبوديا وعام أوربا العاصف، ومؤتمرى قمة برجنيف ونيكسون فى واشنطون وموسكو، والجدل الواسع فى أمريكا حول الوفاق، وأزمة الطاقة وجهود السيطرة عليها، وحرب الشرق الأوسط والجسر الجوى الأمريكى لإسرائيل، وإعلان حالة التأهب العسكرى، ودبلوماسية التنقل : Diplomacy Shuttle، وأحداث استقالة نيكسون. كما يسجل فى هذا الجدل كذلك انطباعاته وتقييمه لشخصيات دولية مثل جولدا مائير،

وأنور السادات، والملك فيصل، وويل براندث، وهلموت شميث، وجورج بومبيدو وآخرين. كما أتبع هذين الجزئين من مذكراته بجزء ثالث هو : Years of Renewal، ثم عمله الضخم عن الدبلوماسية : Diplomacy، وكتابه Does the united states necd a foreign policy ?، ثم كتابه الوثائقى Caisies الذى سجل فيه وثائق حرب فيتنام وحرب أكتوبر.

والحقيقة أنه إذا قارننا مذكرات كتبها وزراء خارجية سابقين على كيسنجر أو لاحقين عن سنواتهم فى الدبلوماسية الأمريكية مثل تلك التى كتبها دين أتشيسون : Present at the creation أو سايروس فانس : Hard Choices، أو زيجنيو برجنسكى كمستشار للأمن القومى : Power and Prenciples أو جورج شولتز.

«Turnoil and Thruint Politics of Diplomacy أو جيمس بيكر فسوف تبدو أعمالهم متواضعة أمام مذكرات كيسنجر التى سوف تكشف عما ميزه عن غيره من وزراء الخارجية من خلفيته التاريخية والفلسفية العريضة والعميقة والتى تبدو بوضوح فى روايته للأحداث والقضايا المعاصرة ورؤيته وتحليله لها من منظور فلسفى وتاريخى.

إذا كانت فكرة أن الرجال والأمم يجب أن يقروا بالحدود والقيود التى ترد على تصرفاتهم وسلوكهم، وأن هذا الإدراك يجب أن يدفعهم إلى التواضع والاعتدال وضبط النفس، إذا كانت هذه الفكرة هى الموضوع الرئيسى فى فلسفة كيسنجر السياسية، وأنها بهذا الشكل كانت وراء اتجاهه الى إعادة ترتيب علاقات الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفيتى فى أوائل السبعينيات تأسيسا على إدراك الحدود التى بدأت ترد على قوة الولايات المتحدة وقدراتها فى ضوء : انتهاء الاحتكار النووى التى كانت تنفرد به، توصل الاتحاد السوفيتى إلى وضع التعادل الاستراتيجى Eaual Security مع الولايات المتحدة، تحول الوضع الدولى من حالة القطبية الثائبة إلى حالة تعدد الأقطاب، بعد بروز قوى لها قدراتها المستقلة داخل معسكرى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى،

ونظرية الحدود تلك : The Dectrine of Linits والتى وجهت، بل وحكمت فلسفة وممارسات كيسنجر السياسية، كان لها أساسها فى فلسفة التاريخ عند كيسنجر. وعند هذه النقطة فقد قيل أن تأملاته فى شبابه حول الزمن، والوجود، والموت جعلته مهيأ نحو عقلية البقاء واهتمام مماثل بالقوة، ورغم هذا

كان ثمة عنصرا فى كتابات كيسنجر الأولى تظهر خفوت ولعه بالقوة وتساعد على توضيح تركيزه على المفاوضات والحلول الوسط. هذا العنصر هو اتجاه كيسنجر، التأمل العام نحو الحياة والتاريخ، وقد بدأ أول ما بدأ فى رسالته للتخرج وفى تعبيره عن المشكلة الفلسفية للعلاقة بين التاريخ والأخلاق : «ما هى العلاقة بين الأخلاق وفلسفة التاريخ ؟ ... إن رؤية تتابع النمو والتحلل، والحروب، وتدمير القيم يغرى المرء بأن يوافق مع هيجل بأننا حين نعزى أنفسنا بأن لا يمكن أن يكون غير ذلك، عندئذ فقط يستطيع أن نتقبل هذه الآثام». غير أنه مع هذه الحتمية ومنها، يبدو أنه قد بزغ شعور بالتواضع، واعتراف من جانب الإنسان بحدوده. لقد كان شعار معبد دلفى هو «اعرف نفسك» وكان يعنى فى الواقع أن اعلم إنك إنسان ولست إلهًا. فمن قبول فكرة الحدود ينبع الشعور بالتوقير الذى يرى التاريخ لا كمجرد محنة، أو البشرية كأداة دائما كإنجاز عميق. وهذا الشعور بالتواضع، وهذا الاعتراف، بأن الفرد إنسان وليس إلها، له مغزاه الكامل فى مفهوم التسامح.

ورغم تأثر كيسنجر بفلسفة كانط، فإن نظرته عن الحدود تنبع من اعتبارات مختلفة عن تملكه اعتبارات الفلسفة الأخلاقية

عند كانت، فعند كانت : الإنسان إذا ما قام بمجهود حقيقى لكى يعيش حياة خلقية وان يعامل الاخرين كأحرار أخلاقيين، فإن سلوكه حتما سوف يعكس قرارا بأن يعيش وفق عدة قيود. اما كيسنجر فإن اعتباراته فى فكره الحدود تنبع من تأمله الحاد فى الزمن ونهائية الإنسان والاعتقاد بأن التاريخ يظهر ان الحياة هى غالبا قصيرة وأن بعض العقبات امام أهدافها لا يمكن التغلب عليها. ولذلك فإن التأمل حول الزمن والتاريخ يكشف عن حدود قوة الإنسان، وأن التقييم الواقعى للوضع الإنسانى، وليست صلاحية المبادئ الخلقية، يثبت الحاجة إلى الاعتدال وضبط النفس إضافة إلى هذا بأن كيسنجر كفرد يخشى التطرف الذى يمكن أن يقود إليه الاقتصاد فى المطلق سواء فلسفيا أو سياسيا.

فأى نوع من رجال الدولة هو الذى يعبر فى رأى كيسنجر أفضل تعبير عن فلسفة التعادل والاعتدال ؟ هل هو المحافظ أم الليبرالى ؟ ذلك معيار تاريخى استعمله كيسنجر فى هذا الشأن؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة يمكن أن توجد فى تعليقات كيسنجر عن بسمارك الذى أحس معه بالتوافق القوى. وفى آخر عمل أكاديمى قام به كيسنجر عام ١٩٦٨ قبل دخوله الحكم -

وصف به بسمارك بالثورى الأبيض :

The white Revoluonary .

ويعكس تقدير كيسنجر الكبير لبسمارك اعتقاده بأن الماريشال البروسى يستمد حدته من اعتقاده بأن ضبط النفس والقبول الذاتى بالحدود والقيود، سوف ينبع تلقائيا من التقدير والحسابات الباردة للقوة ذاتها، لا من الرغبة فى المحافظة على التقاليد أو النظام .. «إن الإصرار على التطابق بين إرادته ومعني الاحداث سوف يسجل نوعية بسمارك الثورية فلا الاحترام للأشكال التقليدية للمحافظين أو الاحترام لنظريات الليبراليين كان جزءً من طبيعة بسمارك. إنه إذا ما دعت الضرورة يمكن أن يستجيب لأحدهما، ولكن من بعيد وبشكل تقييمى وروية باردة لحدودهم».. ورغم أن المستشار النمساوى مترنيخ كان يجسد فكرة الحدود، وقد حارب نابليون لأن الإمبراطور الفرنسى فشل فى أن يعترف أن هناك قوى أو إرادة أسمى منه، الا أن كيسنجر قد اعتبر إن بسمارك أعلى من مترنيخ فى هذا الشأن لأن المستشار الحديدى - على عكس مترنيخ - لم يخلط ضبط النفس بالهدوء والسكون أو جعل من الاستقرار الهدف السياسى الوحيد المقبول. وبينما كان

الدبلوماسى النمساوى مشغولاً فى محاولة لا نهاية لها وعقيمة لوقف مجرى التاريخ، فقد حاول بسمارك إن يقيم الوفاق الأوروبى The concent of Europeعلى حسابات دقيقة للقوة. ورغم ميول كيسنجر المحافظة فقد انتقد بشدة المستشار النمساوى لأنه طابق بين الاستقرار وبين الوضع الراهن ووسط فترة من المد الثورى، كما كانت محاولته المحافظة على إمبراطورية النمسا المتداعية عقيمة، لأن مترنيخ رفض الاعتراف بالمعانى الطويلة الأجل للمطالب المحبطة للتقدم السياسى والاجتماعى. وعلى هذا كان مترنيخ - العقلانى - محكوم عليه بالفشل لأنه فشل فى أن يدرك أن التغيير هو القانون الديالكتيكى الذى يحكم العلاقات الدولية، وفى هذا الشأن كان بسمارك متفوقا عليه لأن عمقه الروحى الأكبر هيأ له أن يفكر فى الفوضى دون أن يستسلم لها.

فى نهاية عام ١٩٦٩، وبعد أن تصادمت الجيوش السوفيتية والصينية على طول حدود نهر يورى وجه السفير السوفيتى فى واشنطن سؤالا مباشر إلى هنرى كيسنجر، وحيث كان يشغل حينذاك منصب مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى نيكسون، عما إذا كان قد توقع أن يشن الروس هجوما شاملا

ضد الصين، فأجابه كيسنجر : «كمؤرخ، فإن المرء يجب أن يتيح مجالا لهذا الاحتمال». وبعد هذا بسبع سنوات، وكتوديع لسنواته فى واشنطن لاحظ كيسنجر «كمؤرخ، فإن المرء يجب أن يكون على وعى باحتمال المأساة، ومع هذا، فكرجل دولة، فإن من واجب المرء أن يتصرف وكأن بلده خالدة، وقد تصرفت وفقا لافتراض أن مشكلاتنا قابلة للحل».

وبهذا الشكل، فإن وعى كيسنجر التاريخى مكنه من إقامة هى أبعد من اهتمام السياسى العادى، وجعلته مهتما بإمكان الذى ستضعه فيه كتب التاريخ.

وأكثر من أى وزير خارجية آخر فى تاريخ الولايات المتحدة، فقد كان يقرر تصرفاته ويقيس انجازاته وعينه على الملاءمة بين تيار التاريخ الطويل وبين الخطة القصيرة وقد كتب يقول «إن المعتقدات التى كونها القاده قبل أن يصلوا إلى السلطة، رأس المال الثقافى الذى سيستهلكونه طالما ظلوا فى منصبهم».

وكما رأينا من استعراض أعمال الأكاديمية والفكرية سواء تلك التى أقامت بناءه الفلسفى والتاريخى : تأملات حول سبنجلر «وكانت»، وعمله الذى أرخ به لدبلوماسية القرن الـ ١٩ «Diplomacy»، أو تلك التى أرخ بها لسنوات عمله

الدبلومـاسـى : «سنوات البـيت الأبيض»، «سنوات الغليـان»، «سنوات التـجديد»، هذه الأعـمال قـد صنعت له عـلاقـة طـويلة، خصبة ومعقدة مع التاريخ.

وبينما يشير معظم الكتاب إلى هؤلاء اللذين ينفذون السياسة الخارجية لأمة ما على أنهم «دبلوماسيين» أو «صناع سياسة»، فإن كيسنجر يستـخدم مستوى أعلى حيث يكتب عن «رجال الدولة» Statsman حيث اعتـبر أن رجل الدولة الحق هو الذى يتصرف وكأن أمته خالدة، وباعتبار أنه لن يحصل أبدا على اليقين فإن عليه أن يحدق دائما فى الظلام، وعليه أن يختار أدوات تكتيكاته التى تستخلص السياسة من قبضة الماضى، وعليه أن يعيد تنظيم لا أن يقبل، الواقع. وقد كتب فى مذكراته «أن مسئولية رجل الدولة أن يحل المعضلات لا أن يتأملها» ومثل هذا القائد يجب أن يمتلك صفات غير عادية بل وبطولية : الحكمة، والمعرفة، والجرأة، والإلهام، والتذوق الفنى، وجذب الجماهير وأن يكون لديه الإيمان، وحيث تنبع أعماله من مصادر داخلية أكثر منها مادية. ذكر فى مقابلة أجريت معه عام ١٩٧٧ «أشعر أن أعظم مصدر لقوتى هو فيما أمتلكه من حدس عن أن تقع تيارات التاريخ الرئيسية».

من هذه الصفات الشخصية تتبع تصرفات رجل الدولة الحقيقى. وهو دائما يتصرف بإحساس حاد بالتوقيت. وهو يعرف متى تحين اللحظة لكى يدفع قوه التاريخ الساحقة إلى اتجاه جديد ولأن مثل هذه اللحظات أندر من أن يختزنها. فإن رجل الدولة يجب أن يمسك بها لحظة ظهورها. وكأن فى هذا يذكر بقول بيسمارك «أن أكثر ما يستطيع رجل الدولة أن يفعله هو أن يمسك بثوب التاريخ وهو يمر «على أن كيسنجر ينبه أنه إنما يقدم نموذجا لرجل الدولة وليس بنجاح، فكل القادة عليهم أن يواجهوا إمكانية أن أفضل جهودهم قد تفشل بشكل مأساوى. فالخلق Cneation هو العمل الموحش للأبطال.

ويعتبر كيسنجر أن أعدى أعداء رجل الدولة هى البيروقراطية والبيروقراطيين ولهذا فهو يهاجمها بعنف. فعنده أنه بسبب طبيعة البيروقراطية والأسلوب والتفكير الذى يمارس به البيروقراطيين عملهم، فإنهم لا يستطيعون أن يستوعبوا التيارات العريضة للسياسة الدولية، فرغبتهم فى أن يتأكدوا من كل شىء، وتأجيلهم اتخاذ القرارات حتى «تتوفر كل الحقائق» الأمر الذى مع اندفاع الأحداث، سوف يحرم صانع القرار من أفضل اختياراته. وبطبيعته فإن البيروقراطى يتبنى ويحافظ على

الوضع الراهن، ولا يوافق إلا على الإجراءات الصغيرة، ويرى الحكمة فى التطور الكمى. ولأن البيروقراطية «تبالغ فى التعقد الفنى لمشكلاتها»، فإنها تعارض الأفكار الجديدة على أنها غير سليمة وخطره. وعنده أن البيروقراطيين يجمعون الحقائق، أما رجل الدوله فإنه يصنع الاختيارات. وفى رسالته للدكتوراة – The Viorld Restored – والتى فكر فيها فى رجال الدولة أمثال بسمارك، ومترنيخ، وكاسترله، اعتبر أن رجل الدولة يخلق «سياسة» تعتبر روحها معارضة بشكل مطلق لروح الديمقراطية، «فجوهر السياسة هو فى طابعها غير المتوقع، Jes Contin-gencg ونجاحها يعتمد على قمه التقدير والذى هو فى جانب منه حدس. أما جوهر البيروقراطية فهو سعيها للسلامة، ونجاحها هو فى قدرتها على الحساب. أما السياسية العميقة مهما تزدهر على الخلق الدائم، وعلى إعادة التقديرات المتواصلة للعلاقات التى تستطيع أن تنجو وتعلو على المستويات المتوسطة. فالسياسة إنما تتضمن مواءمة بالأخطار، أما الإدارة فهى تتضمن تفادى الانحراف. وليس غريبا أن يكون من أكثر اهتمامات كيسنجر حين تولى السلطة هو أن يعمل على أن يسيطر على البيروقراطية وأن لا يجعلها تعيق ممارساته

وخطط الدبلوماسية.

وقبل أن يصل إلى واشنطن من مركزه الأكاديمى فى هارفارد، استغل كيسنجر كل فرصة لكى يعبر عن نظرته ويصف كلا من جوهر رجل الدولة والمآسى التى تعود أن يعانى منها أو قد استخدم فى هذا نماذجه التاريخيين: مترنيخ كاسترله، وبيسمارك. وفي هذا نذكر أن الأمريكيين عادة ما يربطون اسم مترنيخ بالمؤتمرات الأوروبية وصراع القوة وغالبا ما يربطون كيسنجر بهذا المهندس النمساوى لتسويات ما بعد الحرب النابوليونية. ورغم أن كيسنجر كما سبق أن رآينا لا يربط نفسه تماما خاصة مع بيسمارك «فالعصر مختلف»، كما كان له تحفظاته على بعض ممارساته، إلا أنه سجل إعجابه بأسلوب رجل الدولة التى عالج بها كلا من مترنيخ وكاسترله وتوصلوا إلى معاهدة فيينا التى ضمنت بعد هذا قرابة مائة عام من السلام لأوروبا، فقد كتب فى : Thw World Restored أن إنقاذ أوروبا للسلام ومما يشبه الفوضى كان فى المقام الأول بفضل هؤلاء الرجال العظام». وقد حياهم لدرئهم المطالب الشعبية بالانتقام من فرنسا فقد قاد مترنيخ الطريق فى البحث عن «التوازن» وليس الجزاء، والشرعية وليس العقاب. وقد كان

تناول كيسنجر لدبلوماسية مترنيخ أولا فى معركته ضد نابليون ثم فى إعاده صياغة النظام وسط حطام الحرب، تناولا يقترب من التمجيد : كتب عنه يقول «كانت مباراة تمثلت الجرأة والإقدام فيها فى الوحشة والتوحد التى بعث بها،، وفى وجه عدم الفهم، وسوء الاستخدام من جانب العدو والصديق، وحيث كانت شجاعتها فى عدم الاضطراب وحيث كانت خطوة أو حركة خاطئة واحدة قد تعنى كارثة وافتقاد الثقة التى تقود إلى العزلة، وحيث استمد عظمتها من مهارة حركاتها وليس من إلهام تصورها».

على أن هذا الأعجاب بمترينخ لم يكن بلا حدود. فقد رأى كيسنجر عبقرية تنفيذية Instrumental وليست خلاقة Ceatcve. ووصفه بأنه رجل تكتيك عظيم ولكنه استراتيجيا متوسط القدرة. وسوف يثبت افتقاره للاستراتيجية أو التصور Concept أنه كان مميتا. فقد نفد مترنيخ مناوراته الرشيقة لدولة رجعية لم يشك أبدا فى أسسها، وفى عصر الثورة والقومية حاول المحافظة على الوضع الراهن وكبت الأمانى القومية. وأمضى حياته وهو «يدعم أبنية متداعية».

كتب كيسنجر نوعا من الرثاء حول ما تصوره جوانب فشل

مترنيخ وكاسترله النهائية :

«إن رجل الدولة هو ... مثل واحد من أبطال الدراما الكلاسيكية الذين لديهم رؤية للمستقبل ولكنهم لا يستطيعون نقلها مباشرة إلى مواطنيه ولا يستطيع أن يثبت صدقها. إن الأمم تتعلم فقط من خلال التجربة، ولكنهم «يعلمون فقط حين يكون الوقت متأخرا جدا لكي يتصرفوا. ولكن رجل الدولة عليه أن يتصرف وكأن الحدث هو بالفعل تجربة، وكأن أمانيه حقيقة. ولهذا السبب، فإن رجل الدولة يجب أن يكون معلما، وأن يعبر الفجوة بين خبرة وتجربة شعبه وبين رؤياه هو، بين تقاليد شعبه وبين مستقبله وفى هذا الشأن فإن إمكانياته محدودة».

ويطبق كيسنجر هذا التصور على كل من مترنيخ وكاسترله فيقول : «إن رجل الدولة الذى يتحدى بشكل بعيد تجربة شعبه سوف يفشل فى تحقيق إجماع شعبى أيا كانت حكمة سياساته، وهو ما ينطبق على كاسترله، أما رجل الدولة الذى يمد سياسته بتجربة شعبه فسوف يحكم على نفسه بالعقم، وهو ما ينطبق على مترنيخ».

فى عام ١٩٦٨ نشر كيسنجر مقاله حول رجل الدولة الذى يحترمه أكثر من أى شخص آخر وهو بيسمارك موحد ألمانيا.

وتعكس المقال القرابة التى تربطه بهذه الشخصية الواقعية، ويشير كيسنجر بوجه خاص إلى رسائل بيسمارك الدبلوماسية منذ عام ١٨٥٠ «إن السياسة العاطفية لا تعرف أى تبادل، فالاعتراف بالفضل والثقة لن تأتى بأى شخص إلى جانبنا، فلن يفصل ذلك إلا بخوف إذا ما استخدمناه بشكل حرز وماهر»، وقد ركز كيسنجر على هذه الشخصية الروسية باعتبارها نموذجا للجرأة السياسية، ومشيرا إلى ملاحظتى بيسمارك بأن «الجرأة» قد تجعل الأمم الضعيفة قوية، وإلى تحذيره بأن «الوساوس الأخلاقية» قد تجعل الأمم القوية ضعيفة.

غير أن أهم ما رأى كيسنجر فى بيسمارك هو مخاطرته الثورية فى الشئون الخارجية. فهو لم يقبل الواقع، ولكنه شكله، كما «أعاد صياغة خريطة أوروبا وأطار العلاقات الدولية». ورغم قلق كيسنجر من خلط بيسمارك بين أرداته وبما هو صواب، إلا أنه أيضا حدد الجوهر الروحى في المستشار والذى سمح له بأن يفهم ضرورة وضع حدود على اندفاعه واندفاع أمته نحو القوة. وفى رسالته للتخرج كتب كيسنجر أن الحرية تنبع من «إدراك الحدود Recognition of Limito وفى إقامة الحدود على جهاد الإنسان. وفى هذا اعتبر كيسنجر أن عبقرية بيسمارك الخاصة

أخذت صورة معرفته الحاده بالنفس والتى قادته لأن يحول القوه الى «أداه لضبط النفس».

ونجد أنه مما هو مؤسف أن بيسمارك لم يخلف لا مهاراته اللامعة ولا ضبطه لنفسه لخلفائه. فبعد أن طرده القيصر عام ١٩٨٠، فشلت السياسة الألمانية بشكل يقترب من الكارثة، أدت بعد هذا إلى الحرب العالمية الأولى نتيجة لتصرفات خرفاء والتخلى عن ضبط النفس. فقد حرك اندفاع ألمانيا نحو الأمن المطلق موجات من عدم الأمن بين القوى العظمى الأخرى، بشكل أدى إلى تصاعد الفعل ورد الفعل وبشكل انتهى إلى كارثه عام ١٩٠٤. نجد أن كيسنجر يعيب على بيسمارك عدم إقامته لمؤسسات تعمل بعده وفى غيابه وبأداء متوسط، «إن رجال الدولة الذين يبنون يشيدون أبنية تكتب لها البقاء، إنما يحولون عملية الخلق السياسى إلى مؤسسات يمكن أن يحافظ عليها بمستوى اداء متوسط وفى هذا اثبت بيسمارك عدم قدرته عليه «لأن سيطرته الشخصية عاقبت صعود خلفاء قادمين. ويحذر كيسنجر أن «المجتمع الذى يعتمد على إنتاج رجل عظيم فى كل جيل كى يحافظ على مركزه الدولى والداخلى سوف يحكم على نفسه بالفشل، ذلك أن ظهور وأكثر من ذلك الاعتراف برجل

عظيم هو أمر يخضع إلى حد كبير للصدفة».

وقد ميز كيسنجر بين «رجل الدولة»وبين «النبى»، فالنبى يتبع العدالة المطلقة والعالمية. وهو يرفض أن يساوم. وهو يتحدث لا عما هو ممكن، ولكن ما هو صواب. أما رجل الدولة فهو على النقيض، يدرك الحدود البشرية، والوجود الدائم للمخاطر. وهو ينشد خلق الإجراءات الوقائية إذا ما فشلت السياسات. وهو يناضل من أجل الاستقرار، والاستمرار والدوام والحلول النسبية، ورغم أن كيسنجر قد اعترف أنه فى ظروف ما فإن كلا من النبى ورجل الدولة قد ينجحا، فإن تعاطفه يتجه نحو رجل الدولة «فالنبى يمثل عصرا من عصور الخيال، والاضطرابات الكبرى، والإنجازات السريعة، ولكن أيضا الكوارث الضخمة... فأسلوب النبى يمكن أن يتضمن أكبر الاختلالات ومزيدا من المعاناة». ورغم أن كيسنجر قد عارض بحث النبى عن حلول كلية، فإنه رغم هذا قد استنكر رجال الدولة الذين يمتلكون رؤية محدودة : «ذلك أن رجل الدولة يجب أن يحكم عليه ليس فقط بأفعاله، ولكن أيضا بتصورهم للبدائل». فالمأزق الرئيسى الذى يواجه رجل الدولة هو أن يتصرف رغم القيود المفروضة عليه، ولكن ألا يتقدم بعيدا وبشكل يفقد الصلة

بالواقع أو يتجاهل مشكلة التنفيذ. فى وصفه لديجول لاحظ كيسنجر «أن رجل الدولة يجب أن يعمل بالمادة المتاحة أمامه. فإذا تعدت مفاهيمه طاقة بيئته على استيعابها، فسوف يفشل بغض النظر عن صلاحية بصيرته». فرجل الدولة عليه أن يحترم وسائله المتاحة وكذلك أحلامه.

ويعدد كيسنجر، القيود التى تؤثر على رجل الدولة : خبراته الشخصية من خلال صعوده إلى السلطه، إيديلوجيات والرؤى الخاصة للعداله لدى قوى أخرى، الجغرافيا والتاريخ، والهيكل الداخلى فى بلده. هذه القيود قادته لأن يستخلص أن «المرونة الكاملة فى الدبلوماسية هى وهم الهواة» كما أن هذه القيود ربما دعمت اعتقاده أن النوايا ليست مهمة جدا فى السياسات الدولية لأن هذه الظروف الموضوعية غالبا ما تحدد سياسات الدوله بغض النظر عن رغبات القادة.

وفى بحثه عن العوامل التى تؤثر وتعيق حرفة رجل الدولة، اعتبر كيسنجر أن الاختلافات الأيديولوجية تسهم فى ذلك، فالقادة الذين يخلصون لأيديلوجيات متصارعة لن يتمكنوا من اقناع بعضهم البعض. بالإضافة إلى ذلك، فإن الصراعات الأيديلوجية تشجع سياسات التدخل لأن رجال الدولة يصبحون

مهتمين ليس فقط بالسياسة الخاصة لجيرانهم، ولكن أيضا بشئونهم الداخلية، ومن هنا كان تفضيل كيسنجر لعصر مترنيخ حين كان رجال الدولة «يفهمون بعضهم البعض، ليس فقط لأنهم يستطيعون التناقش بسهولة بالفرنسية، ولكن بالمعنى الأعمق كانوا على وعى بأن الأشياء التى يشتركون فيها هى أكثر أهمية من تلك التى يختلفون حولها. ودون مثل هذه البيئة المواتية لم تكن دبلوماسية مترنيخ ستصادف مثل هذا النجاح».

ورغم أن كيسنجر يحدد الاعتبارات الأخلاقية باعتبارها قيدا على الدبلوماسية، إلا أنه يتصورها بشكل مختلف عن عديد من المراقبين. فعنده، أن كل مجتمع له إجماعه الخاص به.عما هو عادل، والاستقرار الدولى يتطلب من رجال الدولة أن يساوموا بين هذه الفكرة وبين وجهات نظر دول أخرى. وهكذا كان ذلك يتضمن بالنسبة لكيسنجر أن العدالة نسبية.

كذلك اعتقد كيسنجر أن الاعتبارات الأخلاقية تؤثر بشكل أكبر على الدبلوماسية حين تصبح جزءً لا يتجزأ من مبدأ الشرعية ولذا تؤثر فى نطاق الأفعال التى يعتبرها رجل الدولة مسموحا بها. فمثلا أثنى على مترنيخ «لمهارته الدبلوماسية المرموقة التى مكنته للتحكم فى الأحداث بتحديد إطارها

الاخلاقى». وبشكل مشابه لاحظ أن بيسمارك «كان سيكون الشخص الأخير الذى سيرفض فعالية الإجماع الأخلاقى : فقد كان سيعاملها كرافد مهم من روافد القوة، وكعامل من بين عوامل عديدة يجب وضعها موضع الاعتبار». بالإضافة إلى هذا دعا كيسنجر الغرب لأن يدرك تفوقه الأخلاقى على الكتلة السوفيتية لأن الفشل فى إدراك ذلك «يجرد الغرب من يقينه الداخلى الذى يمكنه من التفاوض بشكل فعال «وتؤدى إلى سياسة الضمير بالذنب» ورغم إن كيسنجر بهذا الشكل قد حط من المبادئ الأخلاقية العالمية أو أنه اعترف فقط بأهميتها كأداة، إلا أنه كان حريصا على أن يفصل النسبية الأخلاقية من الانتهازية المحضة التى عارضها لافتقادها للهدف. ورغم هذا فهو لم يرفض كل أشكال الانتهازية لأن «أى أحد يريد أن يؤثر فى الأحداث عليه أن يكون انتهازيا إلى حد ما».

إذا كانت هذه هى نماذج كيسنجر التاريخية لرجل الدولة، والمستويات والمعايير التى يتطلبها فى رجل الدولة الحق، فما هو مكان كيسنجر نفسه من هذه النماذج، وما مدى انطباق المعايير التى وضعها عليه من خلال ممارسته للسلطة.

يقول نقاده ومؤرخيه، أنه بمعايير المهارة فإنه من غير أن

ينتمى إلى مترنيخ، ولكنه أيضا شأنه شأن مترنيخ فشل فى أن يتقصى مزايا البقاء المحتمل للنظام الذى عمل فى نطاقه.

اما بالنسبة لبيسمارك فإن كيسنجر قد ارتكب نفس الخطأ الرئيسى الذى سجله هو على المستشار الروسى. فكل نجاحات كيسنجر الأساسية كانت ضربا من ضروب البراعة : اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية، جولاته المكوكية فى الشرق، السلام فى فيتنام. ورغم إدراكه للحاجة إلى أن يقيم سياساته على أساس مؤسس إلا أنه لم يبذل أى مجهود فى ذلك، وقبل أن ينشر مقالاته عن بيسمارك الثورى الأبيض ١٩٦٨ حذر قبلها بحقبة من الزمن من إهمال التنظيم Dvganisation تعبئ المؤسسات من أجل الإلهام Jnshiatcon وفى منتصف الستينيات حث زعماء بلاده أن يقيموا من السياسات التى يستطيع خلفاؤهم أن يحافظوا عليها غير أنه، وبلا حياء، كتب فى مذكراته التى أرخ فيها لسنواته فى الحكم، أن النجاح ذو الأهمية ثقة للسياسة الخارجية يجب أن يوجه عبر قنوات الحكومة الروتينية «فإن أى حكومة يجب أن لا تفرض على نفسها الحاجة إلى استمرار براعتها بشكل يعتمد على الشخصيات». ومع هذا فإن ممارساته للسياسة الخارجية أثبتت

أنه يفضل العمل من خلال دوائر مغلقة والقنوات الخلفية سواء كان ذلك من خلال عمله فى البيت الأبيض أو وزارة الخارجية. ولذلك فإنه بعد تركه السلطة لم يخلف وراءه من المؤسسات أو الشخصيات من يستطيعون البناء على ما حققه.

كذلك كان مما دعا إليه كيسنجر فى كتاباته أن النظام الديمقراطي يجب أن يعلم جمهوره والرأى العام فيه من أجل أن ينجح، والحقيقة أن كيسنجر قد بذل جهدا شخصيا فى هذا الاتجاه، فبعد أن تولى وزارة الخارجية عام ١٩٧٣، طاف كيسنجر فى الولايات المتحدة شرقا وغربا، حيث قدم أكثر من ٦٠ خطابا حول السياسة الخارجية، ورغم ما تميزت به من إخلاص وعكسته من اقتناع، إلا أنها لم تحقق هدفها. الأمر الذى جعله يتحسر على حالة الجمهور ومستويات فهمه فاسترضاء النقاد بدا أمرا عقيما، فسوف يتقبلون التنازلات التى يقدمها لهم بلا اعتراف بالفضل ثم يطلبون المزيد. وقد زاد إحساسه بذلك بمدى الضرر، الذى ألحقته المظاهرات المعادية للحرب فى فيتنام بقوته التفاوضية مع الفيتناميين الشماليين، وكتب فى ذلك فيما بعد يقول «إن بعض أفضل الناس فى الولايات التى ظنوا أنهم يخدمون السلام بالحط من شأن

حكومتهم». بل إنه اشتكيد رئيس فيتنام الجنوبية ثيو فى أكتوبر عام ١٩٧٢ «أنه فى الولايات المتحدة فإن كل الصحف، ووسائل الإعلام، والمثقفين لهم مصلحة أكيدة فى هزيمتنا». على أن وجه التناقض يبدو أن نفس كيسنجر الذى لعن معارضيه الداخليين وكتب كيف أنه ونيسكون وجدا «فى داخلهما القوة المعنوية للمحافظة على مجتمعنا فى الوقت الذى كان يداهمه الشك»، كان هو الذى أعلن بشكل لا تحفظ فيه، أغسطس عام ١٩٧٣ أن «أى سياسه خارجية، أيا كانت عبقريتها، ليس لها أى نصيب من النجاح إذا ما ولدت فى عقول قلة ولكنها لم تنعكس فى قلب أحد».

وشأنه شأن أحد نماذجه التاريخيين، وزير الخارجية البريطانى أيام تسويات فيتنام لعام ١٨١٥، فإن كيسنجر قد تعدى خبرة أمته. فاحتقاره المقنع للرأى العام، ومقته الذى لم يخفيه لنقاد الحرب الفيتنامية، وتهربه من أن يحاسبه الرأى العام، وتمسكه بالسرية، كل هذا حمله بعيدا عن أحد المعايير فى قيادة السياسة التى يشعر معها الشعب الأمريكى بالرضا والارتياح الدائم.

رأينا كيف أن التاريخ والوعى به، ودراسة وتأمل شخصيات

مثل كانط، وشبنجلر وتوينبى كانت المكونات الرئيسية للفكر التاريخى والفسلفى لهنرى كيسنجر وهو الفكر الذى ميزه عن العديد من وزراء الخارجية الذين سبقوه، وصنع وإدارة السياسة الخاصة والدبلوماسية الأمريكية، وكذلك بان التاريخ، ومعناه وفلسفته، وفهم كيسنجر له قد استغرق اهتماما أكثر تقصيرا من شراح كيسنجر ومؤرخى حياته والذين انطلقوا فى هذا من فرضية عامة تعتبر أن أخطر الأسئلة الفلسفية ليس فقط بالنسبة لكيسنجر، بل للحضارة الغربية ذاتها، هى تلك التى تتساءل عن هدف وغاية التاريخ، واعتبارهم أن البعض ربما يجادل فى الوقت الحاضر بأن الاهتمام بالتاريخ لا يمثل أهمية ثقافية أو سياسية معاصرة، وقد يؤيد هذا الجدل أن العلم والتكنولوجيا المعاصرة إنما تحول العالم بشكل سريع يبدو معه الماضى وتذكره أمرا قليل الأهمية بالنسبة للاهتمامات المعاصرة، فعدم الاستمرارية فى حياتنا التى تنشأ عن التغيير الاجتماعى السريع والذى يحدث فى وقت واحد مع عملية تمجيد الحاضر التى تشجعها وسائل الإعلام الجماهيرية حيث تتدفق الأحداث والأخبار علينا من كل جانب، وتقلل من طاقتنا على التأمل والحساسية تجاه استمرارية التاريخ. وعلى هذه فإن

التدهور الذى تسجله الوثائق فى دراسة التاريخ أو الاهتمام بالماضى ليس مصادفة، وإنما هو تعبير عما يمكن أن يكون اتجاها طويل الأجل يجعل من السهل أن نتخيل خلال سنوات قليلة مجتمعنا خاليا من أى تصور تاريخى للحياة.

على أن مثل هذا الرفض للتاريخ وللماضى إنما يشهد على الأزمة الروحية العميقة التى تتسلل إلى جنبات الثقافة العربية، وتفقد فيه القيم التقليدية الأخلاقية والدينية سيطرتها لا على الصفوة المثقفة فحسب، بل على الرجال والنساء بوجه عام.

وللمعارفة فإن هذه الفوضى الروحية هى التى اشعلت الاهتمام بالماضى بين عدد من الجماعات والأفراد، فكثير من الأمريكيين مثلا يبحثون عن الجذور التاريخية لعائلاتهم أو الأصول العرقية لأجدادهم على أمل الحصول أو اكتشاف شخصيتهم، ومثل هذا التطور ربما كان رد فعل طبيعى لتفكك القيم تحت هجوم التغير الاجتماعى السريع وتفتت العقيدة فى المؤسسات السياسية من خلال الحقب الماضية.

وثمة أمثلة عديدة لما يجرى فى مجتمعات عديدة من بحث واكتشاف للاصول التاريخية، الأمر الذى يثبت ان ثمة حاجات انسانية أساسية تجعل من المستحيل وغير المرغوب فيه بالنسبة

للرجال أن يفصلوا أنفسهم عن ماضيهم. ومثل هذا الحاجات هى روحية فى جوهرها، وهى التى تفسر فى جانب كبير منها مقاومتهم لعملية محو الشخصية التى تجرى فى المجتمع الصناعى والتكنولوجى الحديث، وتزايد الإدراك بأن الوعى التاريخى انما يعكس الجوهر البشرى والإنسانى. فمع قدرة العقل، فإن التأمل فى الماضى هو ما يميز الإنسان عن بقية جميع المخلوقات، وقد أكد الفيلسوف البريطانى كولينجوود هذا حين قرر : «أن التاريخ هو معرفة الانسان لنفسه، ولهذا فهو ذو أهمية للإنسان الذى يريد أن يتعرف على ذاته، وحين يعرف الإنسان نفسه فإن هذا لا يعنى فقط مجرد التعرف على خصائصه الشخصية، وإنما طبيعته كإنسان، ومعرفة أى نوع من الانسان هو ما تم معرفة ماذا يعنى أن يكون هو وليس أحدا آخر. ومعرفة الإنسان لنفسه تعنى معرفة ما يمكن أن يفعله. فقيمة التاريخ إذن هى أنه يعلمنا ما حققه الإنسان ومن ثم ماهو الإنسان».

وهكذا فإنه من خلال الوعى بالتاريخ، يكتشف الإنسان بعدا جوهريا فى طبيعته. غير أنه عند هذه النقطة نواجه معضلة أساسية. فبينما يتأمل الإنسان - ويجب أن يستمر فى أن يتأمل

ماضيه - من أجل العثور على مرشد وموجه له، فإن التقاليد الدينية والثقافية التى كانت تقدم إلى زماننا لتطور وعى الإنسان بتاريخه إنما تمر بمرحلة متقدمة من التفكك، ففى نطاق الحضارة الغربية مثلا، فإن المسيحية الماركسية التى كانت تمثل بالنسبة لهذه الحضارة آخر وجهتى النظر حول العالم تقوم على فلسفة متماسكة للتاريخ، إنما تفقدان الآن تدريجيا وبشكل لا رجعة فيه قدرتها على تحريك أعداد كبيرة من البشر، ومن هنا ينشأ الفراغ الكبير الذى يغرى الرجال بأن يتبنوا اعتقادا خجلا فى العلم الحديث أو الارتباط بحركات سرية من أجل الإشباع الروحى.

وإزاء ذلك لا يملك المرء إلا أن يتساءل عما إذا كان من الممكن فى مثل هذا العصر، الذى ينتاب فيه الدين والفلسفة اليأس والتفكك ويعانى كلا منهما من عدم المبالاة الشائعة، هل يمكن للإنسان أن يعثر داخل نفسه عن المصادر التى تمكنه من بناء وجهة نظر عالمية جديدة ؟ نظرة عالمية تقيد بعض الإحساس بالمعنى النهائى ونعنى به التاريخ ؟

كان لابد من هذه المقدمة عن أهمية التاريخ، والمأزق الذى يواجهه الوعى به، لكى نفسر الأهمية المستمرة التى أولاها

هنرى كيسنجر لبحث الإنسان المستمر عن معنى للتاريخ، ولكى يثبت أن شخصية كيسنجر المركبة وسلوكه لا يمكن فهمها بدون التعرف على هذا الجانب فيه وهو الجانب الذى يجعل أهمية كيسنجر الثقافية لا تقل - إن لم تكن أكبر - من أهميته السياسية، الأمر الذى لم يلتفت اليه ويكتشفه إلا القلة النادرة من الباحثين الذين عكفوا على دراسة الأصول الفلسفية والفكرية فى تربية كيسنجر ومواقفه السياسية فيما بعد، وهو نفس السبب الذى جعلهم يعتقدون أن المكانة التى توصل إليها كيسنجر فيما بعد ليست نتيجة لإنجازاته السياسية، فكثير من الشخصيات السياسية التى برزت قد تحقق لها العظمة، ولكن ما ميز كيسنجر وتفرد به، هو المضمون التاريخى والفسلفى الذى أضفاه على ممارساته السياسية والدبلوماسية، وربما ليس هناك شخصية سياسية فى العصر الحديث تشير إلى «حكم التاريخ» أكثر من هنرى كيسنجر، فحساسيته للتاريخ كانت أكثر العلامات تمييزا له فى منصبه وتعكس تربيته كمؤرخ، وكتاباته كأستاذ فى هارفارد ثم خطبه وهو فى الحكم تحتوى على إشارات منتظمة للعملية التاريخية، فكل نجاح لسياسة أيًا كانت قلة شأنها، هى بالنسبة له لحظة أو مناسبة تاريخية.

ورغم هذا فإن تربية كيسنجر كمؤرخ لا تشير فى حد ذاتها بقيمته وأهميته الثقافية الحقيقية، فكيسنجر ليس رجل الدولة الأول الذى كان فى نفس الوقت مؤرخا أو اهتم بالتاريخ، فثمة شخصيات عديدة لها مثل هذا الاهتمام : كافور، تيودور روزفلت، ودرو ويلسون، تروتسكى، تشرشل، ديجول، نهرو، ولكن ما ينفرد به كيسنجر وأهميته المعاصرة لأزمة القيم تنشأ من منظوره الفلسفى للتاريخ فبينما تعامل غيره من رجال الدولة المؤرخين مع التاريخ فى ضوء وحدود تراثهم الثقافى والدينى كان كيسنجر يمكن أن يعتبر الشخصية السياسية الوحيدة فى الحضارة الغربية التى استكشفت بطريقة منتظمة وقوية السؤال الرئيسى عما إذا كان التاريخ له معنى. فمن خلال دراسته الأولى فى هارفارد درس بشكل طموح ومعقد عددا من المفكرين الأوربين الذين تأملوا فى الماضى وشكلوا فلسفة للتاريخ. ويبدو أن كيسنجر قد ألهم فى جانب منه بالرغبة فى تنظيم أفكاره الخاصة عن غاية الحياة.

ومن هنا جاءت الدراسة التى وصلت إلى ٤٠٠ صفحة حول «معنى التاريخ. تأملات فى سحر شبنجلر، كانط وتوينبى» وهى الدراسة التى تتضمن كل الموضوعات الرئيسية لفلسفته

السياسية المقبلة، وتكشف عن أزمة القيم التى مر بها كيهودى بعد محنة اليهود فى ألمانيا. وقد أقر عددا من الذين حاولوا تفسير شخصية كيسنجر وسياساته بالأهمية الأساسية لهذا المخطوط لفهم الرجل، غير أنه لسوء الحظ فإن أحدا منهم لم يهتم بقراءته بعناية. وليس هذا بالأمر المدهش، ذلك أن معظم ما كتب عن كيسنجر قد اهتم وخدم أغراضا سياسية. وقد طابق بعض النقاد بين كيسنجر ومترنيخ الذى رفضه كيسنجر فى نهاية الأمر كمفارقة سياسية Anachronism، بينما رأى نقاد أكثر بصيرة ظل شبنجلر يحوم حول كيسنجر وقارنوا بينه وبين ما عرف عن كيسنجر من نظرة متشائمة أو قدرية. وهنا أيضا نجد قدرا من سوء الفهم، لأن كيسنجر فى رسالته قد نقد بشدة اتجاه شبنجلر إلى أن يهبط بالقيم وبالحرية البشرية الى مستوى العملية البيولوجية المقررة سلفا.

هذا الفهم السيئ الشائع لكينسجر ولنظام قيمه ونظرته للعالم إنما يشهد على الفهم المصطنع الشائع عنه. إن نظرته الفلسفية للتاريخ والسياسة، كما يعتقد أحد مؤرخيه الذين يؤكدون على بحث أصوله الفلسفية، لا تنبع من تحليل لرجل دولة عظيم مثل مترنيخ أو حتى من دراسة مؤرخ فيلسوف مثل

شبنجلر أو توينبى الذى ولع به كيسنجر فى شبابه، ولكن تطوره الثقافى ينبع من قراءته لفيلسوف القرن ١٩ الألمانى «إمانويل كانط» فهنا الشخصية الرئيسية فى «معنى التاريخ»، والذى مارس تأثيرا عميقا على حياة كيسنجر كما أقر بذلك علنا فيما بعد واعتبر أنه الفيلسوف الذى قدم أكثر الروايات دقة لإحساس الانسان بالحرية والتطلع إلى معنى التاريخ. ولهذا فإن الدور المهم الذى لعبه «كانت» فى تطور كيسنجر الفكرى يجعل من الصعب على مؤرخى حياته الذين ليس لديهم خلفية فلسفية أن يضيفوا تفسيرا دقيقا لحياة الرجل الباطنية. إن انشغال كيسنجر كرجل دولة، وكدارس بالفلسفة السياسية لكانت، وهو الشخصية التى تقع ضمن التقاليد الجمهورية الليبرالية، انما تضع موضع التساؤل فقط مع الفكر المحافظ أو مع كلازوفيتز رجل الاستراتيجية العسكرية الروسى الذى يجسد فلسفة سياسات القوة. فهذه المحاولات إنما تقدم تفسيرات مبسطة لشخصية كيسنجر ولتكوينه الفكرى، فمستواه المركب كمفكر سياسى يصبح أكثر وضوحا حين نلاحظ أن الاهتمام الأول فى رسالته للتخرج كان إبراز وتحليل التوتر الرئيسى بين فلسفة كانت الأخلاقية وبين عقيدة المفكر الألمانى فى حتمية التقدم

التاريخى، وهو العمل الذى يضع كيسنجر بين صفوف الدارسين الجادين لكانت.

لقد أوضح كيسنجر فى رسالته أنه انجذب نحو كانط بسبب الفكره البروتاستينية حول الروحانية الباطنية التى تسللت فى كتابات المفكر الألمانى عن الأخلاق. وبالنظر إلى هذا الاتفاق بين كيسنجر وبين البروتستانتيه فى صيغتها الفلسفية فإنه يحق لنا أن نتساءل عن السبب فى ضوء هذا الاتجاه الفكرى الذى جعل كيسنجر يتبنى السياسة الواقعية أو العلمية كمرشد للعمل.

إن الإجابة المباشرة على هذا تكمن فى تجربة اشوفيتز التى مر بها الجنس الذى ينتمى إليه كيسنجر والتى جعلت من غير الممكن بالنسبة له الاعتقاد فى المسائل الأخلاقية العالمية وفى القيم الخالدة التى شكلت أساس عقيدة كانت فى التقدم الانسانى هذا بالإضافة إلى أن كيسنجر لم يكن قادرا على أن يجد قيمة نهائية أو هدفا فى العملية النهائية لأنه اعتبر أن الموت هو أمر نهائى.

وثمة تفسير آخر لهذا التناقض بين أتباع كيسنجر للسياسة الواقعية وبين مثالية كانط هو أن هذا التناقض يوحى أن رسالة كيسنجر المشهبة، كانت عملا فكريا ولا تعكس مظهرا طويل

الأجل لشخصيته ونظام القيم عنده، بل أن البعض يعتقد أن اهتماماته الثقافية كانت واجهة للتأثير على الآخرين أو كانت القناع لرجل اهتمامه الأساسى هو السلطة. بل إن قدرة كيسنجر على أن يفصل نفسه عن الاهتمامات الأخلاقية والدينية لم يغفل عنها أساتذته الأول مثل كريمر، ومردريكى، واليوت، فكلا منهم يبدو أن استخلص أن المهاجر الشاب هو شخص عملى حتى النخاع والتى تمثل اهتماماته الثقافية أداة للتقدم.

غير أن تفضيل كيسنجر وتوينبى لا يعنى أغفال الأثر المهم الذى تركه هذان المفكران على حياة كيسنجر. ان استعراض شبنجلر للحضارات الكبيرة، وبصيرته الشعرية للمعنى الداخلى للثقافة أو روحها قد مارست نفوذا قويا على كيسنجر. وفى مرحلة دراسته وأستاذيته وكذلك حين عمل وزيرا للخارجية كان يبدو متأثرا بفكره تدهور الغرب التى بدت فى كتابات شبنجلر، كذلك كان رأى شبنجلر فى التحول التدريجى للثقافة الأوروبية إلى حضارة مدنية روح لها كانت عنصرا أساسيا فى كراهية كيسنجر للعلم الموضوعى وعدم تقديره للديموقراطية الشعبية الحديثة.

ومثل شبنجلر نظر كيسنجر إلى الاشتراكية سواء كانت

سوفيتية أو صيغتها الديموقراطية فى أوروبا الغربية على اعتبار أنها رمز على التناول الآلى للحياة.

وأخيرا - وربما ما هو أكثر أهمية - فإن السيناريو الذى رسمه شبنجلر لمجتمع مادى محكوم عليه بالموت، إنما يوضح فى جانب منه المزاج المتشائم الذى يعبر عنه كيسنجر من وقت لآخر، ففى بعض الأوقات يعطى كيسنجر صورة من يناضل لكى يرتفع على حضارة تلطخها البيروقراطية فى تعقيبه على حالة الغرب. منذ حقبة مضت لاحظ كيسنجر بشكل متشائم : فى حياة المجتمعات والنظم الدولية يأتى وقت يثور فيه سؤال عما إذا كانت كل إمكانات التجديد الكامنة فى نظام ما قد استنفذت.

وعند هذه النقطة فإن الأعراض تؤكد على أنها أسباب وتستنفد المشكلات الآجلة الاهتمام الذى يجب أن يوجه إلى تقرير أهميتها، ولا تصاغ الأحداث بمفهوم المستقبل، ويصبح الحاضر هو الاهتمام المسيطر كلية.

وتعكس صفحات عديدة من خطب كيسنجر وهو فى الحكم الانشغال بعدم قدرة الإنسان الواضحة على العمل الخلاق، وقد فسر كيسنجر يوما هذا الاتجاه المتشائم بقوله : «إننى لم أقل أبدا أن لى نظرة متشائمة، لقد قلت - وهو ما هو حقيقى

بالتجربة، أن معظم المدنيات التى نعرف شيئا عنها قد تدهورت فيما بعد - وكل ما يمكن أن تفعله هو أن تسافر حول العالم وتنظر إلى حطام حضارات الماضى لكى تتأكد من هذه الحقيقة، وكمؤرخ، فإن المرء يجب أن يكون حذرا من إمكانية المأساة، ولكن كرجل دولة فإن المرء من واجبه أن يتصرف وكأن أمته خالدة».

هذا الخوف الدائم من الركود الحضارى، والتدهور السياسى، هو الذى أكسب نظرية توينبى فى «التحدى والاستجابة» مكانة مهمة فى نظرة كيسنجر العالمية، ويقوم انجذاب كيسنجر إلى توينبى على حقيقة أن المؤرخ البريطانى على عكس شبنجلر يؤمن أن هناك هدفًا فى التاريخ، كما أن توينبى وعلى أساس من عقيدة شخصية دينية يؤكد حرية الإنسان الذاتية ككائن روحى، ولذلك فإن مفهوم «التحدى والاستجابة» يمثل هدفا فى التاريخ ويصف الطريقة التى يتقدم بها الجنس البشرى رغم ارتفاع وسقوط بعض الحضارات والمدنيات. على أنه رغم انجذاب كيسنجر الذى لا ينكر لهذا التفسير الروحى للتاريخ، فقد رفض كيسنجر فلسفة توينبى فى التاريخ واعتقد أن المؤرخ البريطانى ارتكب خطأً أساسيًا فى

محاولة تأكيد نظريته بأن هناك إطارا هادفا للتاريخ على أساس البحث التجريبي، فليس هناك في الحقيقة إطارا يتبع في سجل التاريخ إلا ارتفاع وسقوط عشرون مدنية غربية، وعلى هذا فقد اكد كيسنجر أن مفهوم التحدي والاستجابة قد تحول إلى وصف آلي للنضال من أجل الوجود وليس رؤية للتقدم الروحي الذي يعين وعي الإنسان بالطابع عديم القيم للنجاح المؤقت.

فماذا كانت إذن أهداف كيسنجر السياسية كرجل دولة عالمي، وأية علاقة - إن كان ثمة علاقة - لهذه الأهداف مع فلسفة التاريخ ؟ هل كان من أتباع شبنجلر القدريين محاولا أن يحبط انحدار أمريكا الذي لا مفر من مركز السيطرة باللجوء إلى المفاوضات ؟ أو كان نسخة من رجل نيتشه المتفوق الذي ينشد المعنى والتحرر بتأكيد إرادته وشخصيته ؟ إن عددا من نقاده يعتقدون بالتأكيد أنه كان الأخير، متهمين كيسنجر بإفساد البعد الأخلاقي في سياسة أمريكا الخارجية وإضفاء الطابع الشخصي على عملية اتخاذ قرارتها. وفي الواقع أن ثمة قدر من الحقيقة فيما يلاحظه البعض من أن فكرة كيسنجر الرومانتيكية والمغالية في الفردية عن الحرية تترك مجالاً ضئيلاً أمام هدف العدالة الاجتماعية والدفاع عن القيم الديموقراطية، فهذه المبادئ

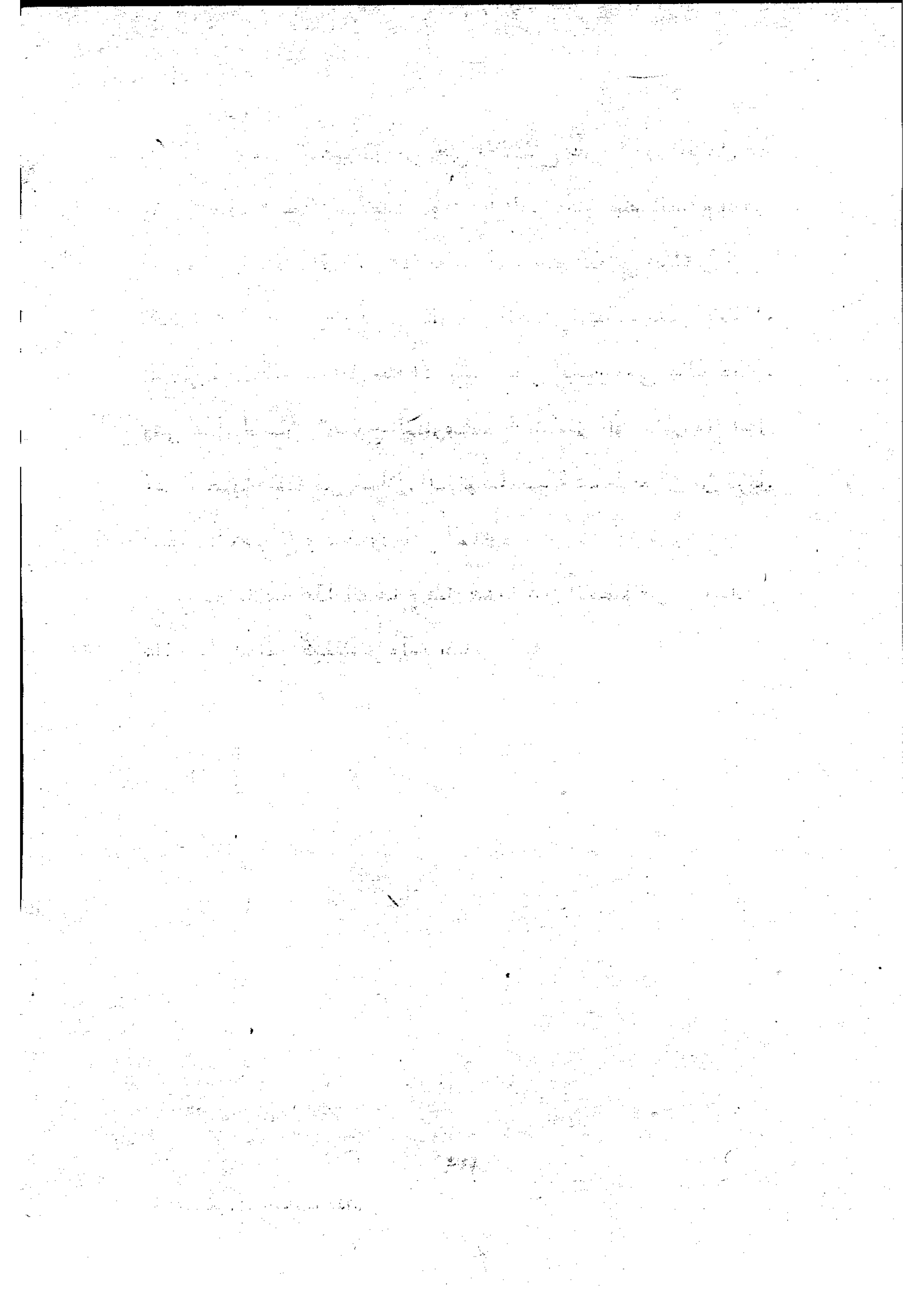
تتطلب شخصا يعترف على الأقل بحق الآخرين فى تأثير وصياغة السياسة، وهو ما كان كيسنجر مترددًا جدًا فى أن يفعله - وهذا الغموض الأخلاقى الكامن فى هذا النوع من الفلسفة السياسية كان واضحا سواء فى سلوك كيسنجر أو فى أسلوبه الغريب الذى عبر به عن سياساته. غير أن المدافعين عن كيسنجر يلاحظون أنه لو كان حقا شخصا عدميا، ما كان قد تبنى بهذا الحماس سياسة التقارب مع الإتحاد السوفيتى والصين، كما أن دبلوماسيته للسلام ما كان يكون لها هذا القدر من التماسك إن كان حقا شخصا مكيافيليا تسيطر عليه فقط مبادرات السياسة.

هذا الاختلاف فى تفسير شخصية كيسنجر والتوصل الى شخصيته الحقيقية له نتائج خطيرة لأن ميراثه السياسى ومكانته فى التاريخ تكتنفهما السحب. وفى الحقيقة فإن شخصية كيسنجر المركبة قد ألقت الأقنعة على دوافعه، وعقدت محاولات توضيح أثره على سياسات بلاده والعالم. ورغم أن قلة هى التى تشكك فى التزامه بالسلام العالمى، فإن الكثيرين يظلون قلقين إزاء احتقاره للآخرين فى حقل السياسة الخارجية، فالمحافظين الأمريكيين وكذا الليبراليين وجدوا رغبته فى احتكار

صنع القرار شيئا غير مقبول، كما أن دعوته وهو وزير للخارجية لأمته أن تستعيد مبادئها الأخلاقية فى قضية ما بعد فيتنام، بدت ذات رنين أجوف بالنظر إلى أسلوبه فى الدبلوماسية السرية وعدم مبالاته الواضحة لمكانه الحرية السياسية أو الدينية أو الفكرية فى الدول الشمولية. وهكذا أخرجه كلا من المحافظين والليبراليين من صفوفهم. ورغم أن شخصية كيسنجر وإطار سلوكه المعقد تبدو أنها تتحدى التحليل، بل ربما كان هو نفسه يغذى هذا الغموض قال يوما لأحد المحررين : لن أفصح لأحد عن حقيقتى، رغم هذا فقد كان حريصا على الدفاع عن نفسه وتوضيح الأساس الفلسفى لأهدافه وممارساته الدبلوماسية كرجل دولة، وكان هذا التوضيح يتضمن الدفاع عن نفسه ضد من يتهمونه باللاأخلاقية وبالتغاضى عن المثل والقيم الأمريكية وتسامحه مع النظم الشمولية من أجل الاستقرار العالمى. فقد اعتبر أن سياسة تحسين العلاقات من القوتين العظيمتين لهما معنيان متميزان بالنسبه له. وكلاهما مهم بدرجة متساوية، وكلاهما يعكس الطابع المتناقض الذى ينظر إلى الحياة ككل فالوفاق أو السعى نحو السلام كانا فى رأيه «عملية تاريخية»، «وعمل أخلاقى» فى آن واحد. وصور سعيه من أجل نظام دولى

باعتباره استراتيجية ترتكز على الاقتناع بأن الأمن الكامل هو وهم وهدف لا يمكن تحقيقه، وإقناع الدول بأن مصالحهم يمكن أن تخدم بشكل أفضل فى نطاق التنظيم الدولى الراهن الذى يقدم أملا أكبر لسلام دائم أكثر من السعى العقيم نحو الاكتفاء الذاتى فى عالم يتزايد فيه الاعتماد على الغير وفى عالم خطر، وفى هذا الشأن، تصبح الدبلوماسية أفضل الوسائل من أجل هذه الغاية، لأنه من خلال الدبلوماسية فقط يمكن أن تزيل أسباب الصراع والوصول إلى السلام.

ورغم بلاغة هذا الدفاع ظل قدرا من الغموض الأخلاقى ملتصقا بدوافع كيسنجر وأساليبه.



المحتوى

صدر من هذه السلسلة

هوية الثقافة العربية.......................... د. أحمد أبوزيد

التكيف الاجتماعى .... د. حكمت أبوزيد

أصوات شعرية مقتحمة .... فاروق شوشة

البرديات العربية فى مصر الإسلامية............ د. سعيد مغاورى

مقالاتى فى المسرح .... سعد الدين وهبه

بين الأدب والسياسة .... د. على الراعى

النقش فوق حبل ليف .... أبو العرب أبو اليزيد

البطل التراچيدى مسلمًا .... د. أسامة أبو طالب

مستجاب الفاضل .... محمد مستجاب

النيل يجرى فى دمى .... فتحى سلامه

الربيع الصامت .... تأليف: راشيل كارسون

ترجمة: د. أحمد مستجير

هكذا تكلم نجيب محفوظ .... عبد العال الحمامصى

مشايخ فى محراب الفن .... د . خيرى محمد عامر

ثلاث شخصيات بين الثقافة والسياسة.............. د. السيد أمين شلبى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موارفيتلى سابقاً)